الدكـــتور

محمد علي البار

DR. MOHAMMAD ALI AL-BAR

كيف أسلم المغول

1429

2008



كيف أسلم
المغول



□ **كيف أسلم المغول**

تأليف : الدكتور محمد علي البار

الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م

قياس القطع: ١٧×٢٤

الرقم المعياري الدولي: ISBN: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٠٧٨-٤

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ١٤٨ / ١ / ٢٠٠٨



دار الفتح للدراسات والنشر

جوال ٤٦٧ ٩٢٥ ٧٧٧ (٠٠٩٦٢)

فاكس ٦٢٠١ ٥١٥ (٠٠٩٦٢٦)

هاتف ١٩٩ ٤٦ ٤٦ (٠٠٩٦٢)

ص.ب ١٨٣٤٧٩ عمّان ١١١١٨ الأردن

البريد الإلكتروني: info@alfathonline.com

الموقع على شبكة الإنترنت: www.alfathonline.com

كيف أسلم المغول

HOW THE MUGHAL BECAME MUSLIM

الدكتور
محمد علي البار



دار الفتح للدراسات والنشر

2008

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

رغم أن الغزو المغولي علىٰ العالم الإسلامي كان مدمراً بصورة مرعبة، إلَّا أنه لم تمض سنوات قلائل حتىٰ بدأ الإسلام يدخل إلىٰ قلوب بعض رجالهم، ويتولىٰ بعض المسلمين المناصب الهامة في الدولة فيخفّفون من ويلات ذلك الدمار المرعب، ويعيدون بناء كثير من المدن التي سويت بالتراب، مثل بخارىٰ وخوارزم وسمرقند وخجنده. . . إلخ.

ولم يكد يمضي نصف قرن من الزمان علىٰ بداية الغزو المغولي المرعب حتىٰ تحول أغلب المغول إلىٰ الإسلام الذي حاربوه، وصاروا من أبنائه والمدافعين عنه، علىٰ ما بقي في كثير منهم من عاداتهم السابقة، والتزام بعضهم بقوانين وأعراف (أليسا) التي أنشأها جنكيزخان وفرضها علىٰ أتباعه وأبنائه.

ومع ذلك فقد ظهر منهم حكام وملوك وعلماء أتقياء، فمن ملوكهم الكبار المشهورين الذين دافعوا عن الإسلام وحاربوا أهلهم وقراباتهم في الذود عن حياضه **بركه خان بن جوجي بن جنكيزخان**، الذي تولىٰ حكم الأورد (الألوس = القبيلة) الذهبي، والذي امتدَّ حكمه من شمال التركستان حتىٰ نهر الڤولجا في روسيا. ومنهم: السلطان محمد أوزبك، الذي حكم مناطقَ واسعةً من روسيا، وكل الأراضي المحيطة بنهر الڤولجا، وإلىٰ القرم وغيرها. وهو أيضاً من نسل جوجي بن جنكيزخان.

كما إن منهم **السلطان العظيم الشأن طرمشرين** الذي حكم **كل بلاد ما** وراء النهر والتركستان، وهو من **نسل جغتاي بن جنكيزخان. وقد كان**

جغتاي عدواً للمسلمين، محارباً لهم، مدمراً لمدنهم وأراضيهم، وأخرج الله من نسله هذا الرجل الصالح المؤمن الذي يُشبَّه في عدله وتواضعه بعدل عمر ابن عبد العزيز والخلفاء الراشدين.

بل إن **إيلخانية** فارس والعراق والشام تحولوا إلىٰ الإسلام، وهم من نسل هولاكو بن تولي. وهولاكو هو عدو الإسلام الأول، وهو الذي حطَّم بغداد، وقضىٰ علىٰ الخلافة العباسية في بغداد، وروّع العباد والبلاد، فأخرج الله من ذريته من يؤمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم نبيّاً ورسولاً.

وهذه الجوانب من تاريخ المغول وكيف أسلموا مجهولة أو شبه مجهولة من عامة المثقفين، ومن العسير الوصول إلىٰ معلوماتٍ موثقةٍ وضافيةٍ عن كيفية إسلام هولاء المغول، وكيف استطاع المسلمون المهزومون أن يجعلوا المنتصرَ يتحول إلىٰ دينهم؟! والمعتاد في تاريخ البشر أن المهزوم يقلِّد المنتصر، وأن المحكوم يتبع دينَ حاكمه، وفي المثل: «الناس علىٰ دين ملوكهم»، فكيف استطاع المسلمون المهزومون والممزَّقون أن يعيدوا بناء هذه الإمبراطورية التي شملت الصين شرقاً، وامتدت إلىٰ بولندا والمجر غرباً، ومن أقاصي شمال سيبيريا شمالاً حتىٰ الهند جنوباً. . . وهي لا شك أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ من ناحية المساحة، وإن كان إسهامها الحضاري ضئيلاً أو معدوماً في أول الأمر، ثم بعد أن توطد ملكها، واتخذت نظمَ وأديانَ الأمم التي انتصرت عليها وقهرتها؛ استطاعت أن تسهم في ميدان الحضارة والرقي والعلم ولو بنصيب.

وقد بدأتُ البحث بالتعريف بالتركستان لعدة أسباب، منها: أن الأتراك والمغول يتداخلون في قبائلهم، ومنها: أن إسلامَ الأتراك سبق إسلامَ المغول، وأن الأتراك هم أصحاب الفضل، بعد الله، في إسلام المغول.

ثم دلفت بعد ذلك إلىٰ تعريف المغول ودولهم وكيف أسلموا، وقد اعتمدت فيه علىٰ عدة مراجع أهمها:

١ ـ «المغول في التاريخ»، للدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد.
٢ ـ «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي»، ترجمة صلاح الدين عثمان.
٣ ـ وثالثها: كتابي «المسلمون في الاتحاد السوفيتي»، إصدار دار الشروق ـ جدة، ١٩٨٣م، والذي نفد منذ زمن.
٤ ـ ورابعُها هو: «دائرة المعارف الإسلامية».

ولا شك أن هناك جوانب كثيرة غامضة، وتحتاج إلىٰ دراسة وثائق ومراجع ليست تحت يدي حتى يمكن أن ينجلي هذا الغموض.

وأنا أدعو المختصين في تاريخ المغول والتركستان ـ وهم قليلٌ في العالم العربي ـ أن يولوا هذه النقطة الهامة ما تستحقه من البحث والتنقيب؛ فمعرفتهم باللغات الفارسية والتركية والروسية تستطيع أن تلقي الضوء علىٰ بعض هذه الجوانب.

ومن المهم لنا في هذا الزمن المدلهم الذي تكالبت فيه علىٰ أمة الإسلام الأعداء، وبلغ المسلمون الحضيض أو كادوا في الذلة والمهانة لأعدائهم من يهود ومستعمرين وإمبرياليين ورأسماليين؛ أن ندرس حسب المقدرة وما توفر من مصادر، كيف استطاع المسلمون أن ينهضوا من كبوتهم، وينشروا دينهم في صفوف ألدِّ أعدائهم، لعلنا نستفيد من الدرس، ونقوم بمثل ما قاموا به، فالناس في هذا الزمان، وفي كل زمان، في أشد الحاجة لنور الإسلام، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

جدة ١٧/ ٦/ ١٤٢٧هـ
الموافق ١٣/ ٧/ ٢٠٠٦م

Suudi Arabistan Türkleri derneği

جمعية أتراك السعودية

Amro Turan



الفصل الأول

التعريف بالتركستان

تركستان أو توران هي بلاد الترك. ويعرِّف بارتولد التركستان في كتابه الموسوعي «تركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي»[١] بأنها: بلاد ما وراء النهر (والمقصود به نهر جيحون أو أموداريا)، الممتدة من حوض نهر أموداريا (جيحون) إلىٰ حوض نهر سرداريا (سيحون). ولم يتعرض بارتولد للمناطق الواسعة الواقعة شرق نهر سرداريا (سيحون)، والتي تمتد حتىٰ أطراف الصين، والتي كان يسكنها الرعاة من بدو الأتراك، وهي المناطق التي عُرفت عند المؤرّخين المسلمين باسم التركستان. وسننقل هاهنا تعريف ياقوت الحموي في «معجم البلدان»[٢] للتركستان (باختصار): «تركستان هو: اسم جامع لجميع بلاد الترك. . . وأوسعُ بلادِ الترك بلادُ قبائل **التغزغز**، وحدُّهم الصين والتبت، وقبائل الخرلخ، والكيماك، والغز، والجفر، والبجناك، والبندكش، وخشقان، وخرخير (قرغيز). وأول حدِّهم من جهة المسلمين فاراب. . قالوا: ومدائنهم المشهورة ست عشرة مدينةً، والتغزغز في الترك كالبادية، أصحاب عُمُدٍ يرحلون ويحلّون. . . والبندكشية أهل بلاد وقرىٰ».

---

(١) بارتولد (فاسيلي فلادمير): «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي»، ترجمة صلاح الدين عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ١٩٨٠م.

(٢) ياقوت الحموي: «معجم البلدان»، دار بيروت للطباعة والنشر، مادة (تركستان).

وهو تعريف محدود بالبلاد التي كانت خارج حكم المسلمين، وبالتالي فإنها تقع شرق نهر سرداريا (سيحون)، وهي الأراضي التي لم يُدخلها بارتولد في تعريفه للتركستان. وكلا التعريفين ناقص؛ فتركستان تشمل تلك الأراضي جميعاً كما سنوضحه بعد قليل.

وقد ذكر ياقوت قصة إرسال الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك رسولاً إلىٰ هؤلاء البدو، وقابل ملكهم ودعاه إلىٰ الإسلام، وعرض عليه أن لا يعيشوا علىٰ النهب والسلب، فلما كان الغد استنفر رجاله فإذا هم مئة ألف مقاتل. وقال الملك: «ليس في هؤلاء خياط ولا إسكاف، ولا حجّام ولا فلاح، فإذا أسلموا والتزموا شروط الإسلام فمن أين يأكلون؟».

ويعرِّف كتابُ «الجغرافيا الإقليمية للعالم الإسلامي»[1] التركستان تعريفاً واسعاً فيقول: «تركستان منطقة واسعة في وسط آسيا، ويقصد بها بلاد الترك، إذ كانت مجال انتقالهم وموطن قبائلهم، وهي منطقة سهلية في الغرب وهضبية في الشرق، وبينها منطقة جبلية عالية ضمن البلاد التركستانية، تغذّي كلا الطرفين بالمياه، وتصل بينهما بممراتها الشهيرة. ومع أن الذرى الجبلية هي التي تفصل بين الشطرين، إلاَّ أن الجزء الغربي يشمل في شرقيّه مرتفعات واسعة، وهي تقع ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، بينما القسم الشرقي منها يقع تحت سيطرة الصين».

وهذا التعريف يجعل أرض التركستان واسعةً جداً؛ تمتد من بحر الخزر (بحر قزوين) في الغرب إلىٰ جبال ألتاي في الشرق، ومن خراسان وصحراء قره قورم في الجنوب الغربي إلىٰ جبال الأورال وسيبيريا في الشمال

---

(١) محمود شاكر ومجموعة من المؤلفين: «الجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي»، وزارة المعارف السعودية.

والشمال الشرقي. وتقع التركستان في وسط آسيا، وتحدها سيبيريا ومنغوليا شمالاً، وأفغانستان وكشمير والتبت جنوباً، والصين شرقاً، وإيران وبحر قزوين غرباً. وبذلك تكون مساحة التركستان قرابة خمسة ملايين كيلومتر مربع، وهي تنقسم إلىٰ قسمين:

١ ـ **تركستان الشرقية**: وتخضع للصين، وتُعرف عندهم باسم (سينكيا نغ)، أي: المستعمرة الجديدة.

٢ ـ **تركستان الغربية**: وهي مقسَّمةٌ لخمس جمهورياتٍ هي: أوزبكستان، وقازاقستان، وطاجكستان، وتركمنستان، وقرغيزيا.

وأهم مدن **تركستان الشرقية** التي تحكمها الصين أربع: أورمجي (تيهوا)، وكاشغر ذات التاريخ المجيد (ستوفوا)، ويارقند وتُسمىٰ اليوم سوجي، وخوتان وتُعرف حالياً باسم هوتين.

وأما **مدن التركستان الغربية** فكثيرة جداً، ولها دور عظيم جداً لا يبارىٰ في التاريخ الإسلامي، ومنها **بخارىٰ** التي يقول فيها الثعالبي: «مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر»، وقد بلغت بخارىٰ ذروة مجدها في عهد الدولة السامانية الباذخة التي جعلتها عاصمتها. وقد فتحت بخارىٰ سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م، علىٰ يد عبيد الله بن زياد والي معاوية علىٰ خراسان، ثم نقض أهلُ بخارىٰ العهد، فتوجه إليها سعيد بن عثمان بن عفان (ابن الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه). وقد غزا سعيد بن عثمان سمرقند، وفي معركةٍ فتحها استشهد قُثَم بن العباس رضي الله عنهما... ثم انتقضت مرةً أخرىٰ ففتحها قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م، وأسكن بها العرب حتىٰ لا تعود للانتقاض، فصارت منذ ذلك العهد قلعةً من قلاع الإسلام وحصونه المنيعة.

وأنجبت بخارىٰ ما لا يحصىٰ كثرةً من العلماء والفضلاء والأدباء، نذكر منهم الإمام **محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي** صاحب «الجامع الصحيح»، وهو أصحُّ كتابٍ بعد كتاب الله سبحانه وتعالىٰ، وقد لقي من الأمة القبول، وصار أهم مرجع في الحديث النبوي الشريف. وقد نُسب البخاري إلىٰ الجعفي، والجعفيون من أهل اليمن (جعفي بن سعد العشيرة من مذحج). وقد أسلم جد الإمام البخاري المغيرة بن بَرْدِزْبَهْ علىٰ يد رجال هذه القبيلة اليمنية فنسب إليهم نسبةَ ولاء (بسبب الدِّين)، حتىٰ قال الشاعر:

أَلا إنّ في الدنيا عجيباً لمن عَجِبْ　　وما كانت الأتراك أبناءَ مذحجٍ

وما ذلك إلَّا لأن أعداداً كبيرةً من هؤلاء الأتراك أسلموا علىٰ يد رجال هذه القبيلة اليمنية. ومن أهل بخارىٰ أعظم أطباء الإسلام قاطبةً، وأكثرهم شهرة، **أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا**، ولد عام ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م، في بخارىٰ، ثم تنقَّل في البلاد بعد أن اتسعت شهرته، وأشهر كتبه في الطب: «القانون»، كما أن أشهر كتبه في الفلسفة: «الشفاء».

ومن مدن بخارىٰ مدينة **بِيكند**، وقد ظهر منها: المحدِّث المشهور **محمد ابن سلام البِيكندي** أستاذ الإمام البخاري (١٦٠-٢٢٥هـ). ومنها: المحدِّث **أحمد بن علي البيكندي**، محدِّث عصره، توفي سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م. ومنها: **محمد بن أحمد البيكندي**، المتوفىٰ سنة ٤٨٢هـ.

ولا مجالَ هاهنا للحديث عن بخارىٰ ومدارسها وعلومها ومَن ظهر بها من العلماء[١].

---

(١) انظر: كتاب «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» لكاتب هذه السطور (٢: ٤٠٧-٤٥٢).

ومنها: **سمرقند** التي فتحها سعيد بن الخليفة الراشد عثمان بن عفان، واستشهد في فتحها قثم بن العباس رضي الله عنهما، وذلك سنة ٥٦هـ.

وسمرقند هي عاصمة إقليم الصغد، تنصبُّ إليها الجداول من نهر زرفشان، وهي أنزه بلاد ما وراء النهر، وكانت تنافس بخارىٰ في المجد، وتعدَّتها في أيام تيمورلنك الذي جعلها عاصمته، وبالتالي كانت عاصمة الدنيا آنذاك.

ويذكر المؤرِّخ الصيني (تشان شن) أن سكان سمرقند بلغوا مئة ألف أسرة، وذلك قبل أن يستولي عليها جنكيزخان ويدمرها تدميراً، وكان سكانُها في عهد السامانيين حكام بخارىٰ وما وراء النهر أكثر من نصف مليون.

وقد نبغ من سمرقند العديد من العلماء المشهورين، منهم: **أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي** (وفاته سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م)، وهو من أعلام الأحناف، ومن الزهّاد المتصوفين، وله «تفسير القرآن الكريم»، وكتابه المشهور «بستان العارفين»، ومثله كتابه «تنبيه الغافلين»، وكلاهما في الرقائق والتصوف، و«خزانة الفقه» في الفقه، و«النوازل من الفتاوىٰ»، و«الرسالة في أصول الدين»، وغيرها كثير.

ومنها: **المحدِّث محمد بن عدي بن الفضل السمرقندي، أبو صالح**، نزيل مصر (وفاته ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م). ومنها: **شمس الدين السمرقندي**، (وفاته سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، أديبٌ وفيلسوف، وله كتابٌ مشهور باسم «آداب السمرقندي»، وفيه آداب البحث والمناظرة.

ومنها: **محمد بن علي بن عمر السمرقندي، ولقبه نجيب الدين** (وفاته ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)، اشتهر بالطب، وكتابُه «النجيبيات في الطبّ» من

المراجع الطبية القديمة المعروفة، وله كتب عديدة أغلبها في الطب وأنواع الأمراض والتشريح.

ومنها: **علاء الدين السمرقندي**، فقيه مشهور، له كتاب «تحفة الفقهاء». واشتهرت معه ابنته فاطمة، وكانت فتاواه تخرج وعليها خط فاطمة وخط أبيها. ومنها: الفقيه المتكلم **محمد بن عبد الحميد الأسمندي السمرقندي** (وفاته سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)، اشتهر في بغداد، له كتب في الفقه والتفسير والاعتقاد. ومنها: **أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي** الحنفي من أئمة علم الكلام، (وفاته سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م)، وغيرهم كثير[١].

ومنها: **خوارزم** (وتنطق خورزم)، وهي منطقة من إقليم التركستان في شماله الغربي، وقد أطلق هذا الاسم علىٰ مدينتها وعاصمتها، وهي الجرجانية (كركانج)، التي تقع علىٰ مصبّ نهر جيحون (أموداريا)، وقد اشتهرت بعد تحول نهر جيحون باسم (خيوه)، وأصبحت خوارزم كلها تعرف باسم خيوه، وذلك منذ النصف الثاني للقرن السادس عشر الميلادي.

وقد قامت في خوارزم الدولة الخوارزمية التي امتدت شرقاً حتىٰ حدود الصين، وغرباً حتىٰ العراق، وجنوباً لتشمل أفغانستان وشمال الهند ومعظم أراضي التركستان وإيران.

وقد كان للخوارزميين دور هام في إسلام المناطق الواقعة شمال بحر الخزر (قزوين) **وبلغار الفولجا**؛ وذلك بإرسال الدعاة إلىٰ الله إليهم من خوارزم. وعندما هجم الروس بقيادة (استراتوسلاف) علىٰ شمال بلاد الخزر طلب أهل الخزر العون من أهل (خوارزم)، فاشترطوا عليهم الإسلام،

---

(١) «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» (٢ : ٤٥٣-٤٦٦).

وأنقذوهم من غزو الروس، وذلك عام ٣٦٥هـ/ ٩٦٥م، ونشر السلطان مأمون ابن محمد الخوارزمي (من الجرجانية) الإسلام في شمال بحر الخزر.

وانتشر الإسلام بجهود الخوارزميين لدىٰ بلغار نهر الفولجا، حتى أصبح هذا النهر العظيم بأكمله تحت سيطرة البلغار المسلمين. واستمرت مملكتهم من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلىٰ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

كما عمل أهل خوارزم على نشر الإسلام في قبائل التغزغز (القراخانيين)، وكانت لهم دولة باذخة، وصفها محمود الكشغري، ووصف إسلام ملكهم بغراخان، وأسلمت معه مئتا ألف خيمة (ما لا يقل عن مليون شخص)، وذلك بفضل الله أولاً ثم بفضل الدعاة إلىٰ الله من العلماء والصوفية من أهل خوارزم.

وقد ظهر من خوارزم ما لا يحصىٰ من العلماء، من أشهرهم: **أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني**، أعجوبة الزمان (٣٦٢-٤٤٠هـ/ ٩٧٣-١٠٤٨م) الذي ألف في الفلك والطب والصيدلة والتاريخ والرياضة، ويجيد العديد من اللغات... ومنها: **محمد بن موسىٰ الخوارزمي** واضع علم الجبر والمقابلة، وتحوَّر اسمه إلىٰ لوغارثم، العلم الذي أوجده... مولده سنة ١٦٤ ووفاته سنة ٢٣٦هـ. وقد عمل في مرصد المأمون... ومنهم **الإمام الزمخشري**، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، صاحب التفسير المعروف: «الكشاف»، (وفاته ٥٣٨هـ). وغيرهم كثير[١].

ومنها **أسفيجاب**: وهي مدينة وولاية كبيرة، اشتهرت بإخراج المجاهدين في سبيل الله (المُطَّوِّعة)، وكان بها العديد من الأربطة؛ لأنها كانت تجاور أراضي الكفار من التركستان قبل إسلامهم (١٧٠٠ رباط للمجاهدين كما

---

(١) «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» للمؤلف (٢ : ٤٦٧-٤٩٤).

يقول المقدسي)، وهي قريبة من بلاباغدن الموجودة اليوم في قازاقستان غيرَ بعيدٍ من حدود الصين في التركستان. وتقع **أسفيجاب وفاراب**[١] كلاهما في جمهورية قازاقستان حالياً، شرق نهر سيحون وشماله.

وقد خرج من أسفيجاب طائفة كبيرة من العلماء بالإضافة إلىٰ المجاهدين (المطّوعة)، منهم **أبو الحسن علي بن منصور** المقرىء المؤدب الأسفيجابي (وفاته بعد سنة ٣٨٠هـ).

ومنهم: إمام اللغة **إسماعيل بن حماد الجَوهَري** (المتوفىٰ سنة ٣٩٣هـ)، صاحب كتاب «الصحاح».

ومنهم: **أبو النصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي** (المتوفىٰ سنة ٣٣٩هـ)، الفيلسوف وشارح كتب أرسطو وناقلها إلىٰ العربية، وكان مجيداً للعربية والفارسية والتركية واليونانية والسنسكريتية لغة أهل الهند، له نحو مئة كتاب، أغلبها في الفلسفة والمنطق والموسيقىٰ والسياسة والتأديب.

وانتقل إلىٰ الشام، وأكرمه سيف الدولة، ومع ذلك فقد كان زاهداً يكتفي بأربعة دراهم في يومه وليله، وينفق الباقي علىٰ الفقراء والمساكين. وكان في أول أمره قاضياً، ثم ترك القضاء ليتفرغ للعلوم الحكمية. . وكان مشاركاً في الطب النظري ولم يعمل به، واشتهر بالفلسفة حتىٰ لقب بالمعلم الثاني؛ (باعتبار أن المعلم الأول أرسطو).

وقد انتقد العلماء الأجلاء بعض ما ذهب إليه هؤلاء الفلاسفة من إنكار عذاب القبر، بل وأنكر بعضهم البعث الجسدي، وخلط كثير منهم بين ما جاء به

---

(١) «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» (٢: ٤٩٥-٥١٠)، فصل أسفيجاب وفاراب ومن ظهر بهما من العلماء.

أرسطو، وأفلاطون، وأفلوطين، وبين ما جاء به الإسلام، فأدّىٰ ذلك إلىٰ إنكار كثير من العلماء عليهم، لكنهم بدون ريب كانوا يؤمنون بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، مع تأويلاتٍ بعضها واضح البطلان.

ومنها: **الشاش**[1]، **والشاش يطلق علىٰ الإقليم وعلىٰ المدينة، وهي المعروفة اليوم باسم طشقند**، الواقعة في جمهورية أوزبكستان شرق نهر سرداريا (سيحون).

وقد وصف ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» إقليم الشاش فقال (باختصار): «الشاش: إقليم ما وراء النهرين (جيحون المعروف أيضاً باسم أموداريا، وسيحون المعروف باسم سرداريا). خرج منها خلق من العلماء والرواة والفصحاء، أهلها شافعية رغم أن معظم بلاد ما وراء النهر أحناف، وقد نشر المذهبَ الشافعي بها أبو بكر محمد بن إسماعيل القفال الشاشي».

وصفها الإصطخري بقوله: «فأما الشاش وإيلاق فمتصلتا العمل لا فرق بينهما... وليس بخراسان وما وراء النهر إقليم علىٰ مقداره من المساحة، أكثرُ منابر منها، ولا أوفرُ قرىً وعمارة».

وإقليم الشاش مرتبط بإيلاق حتىٰ قال ياقوت: «وكورته مختلطة بكورة الشاش لا فرق بينهما». ويشتهر هذا الإقليم بمعادنه الكثيرة، وخاصة معدن الفضة. ويخرج منها كما يقول ياقوت: «النفط والفيروز والحديد والصفر (أي النحاس) والذهب، والآنك (أي الرصاص). وفيها جبال الفحم الذي كان يباع الحِمْل والحِمْلان منه بدرهم».

---

(١) «المسلمون في الاتحاد السوفيتي»، فصل الشاش وإيلاق وأشروشنه، ومن ظهر بها من العلماء (٢: ٥١١-٥٢١).

ويذكر الإصطخري ٢٧ مدينة بالشاش، و١٤ بإيلاق، ويرفعها المقدسي إلىٰ ٣٤ بالشاش، و١٧ بإيلاق.

ومن أعلام الشاش: الإمام **أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفّال (الكبير) الشاشي**، (وفاته سنة ٣٦٥هـ)، اشتغل فترة بصنع الأقفال ثم طلب العلم فبرز فيه، وهو ناشر المذهب الشافعي في هذا الإقليم. له: «أصول الفقه»، و«محاسن الشريعة»، وشرح رسالة الشافعي، و«أدب القضاة».

ومنهم: **فخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي القفال**، وفاته ببغداد سنة ٥٠٧هـ، تولىٰ رئاسة الشافعية في العراق، ومن كتبه: «حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء»، و«المعتمد»، و«الشافي شرح كتاب الشامل» لشيخه الصباغ، شرحه في عشرين مجلداً.

ومنهم: **أحمد بن محمد بن أحمد الشاشي (ابن فخر الإسلام)**، أفتىٰ في حياة والده، (وفاته سنة ٥٢٩هـ).

ومنهم: **محمد بن علي بن حامد الشاشي**، شيخ الشافعية في عصره، (وفاته سنة ٤٨٥هـ).

ومنها: **ترمذ**، من أمهات المدن كما يقول ياقوت في «معجم البلدان»، راكبة علىٰ نهر جيحون (أموداريا) من جانبه الشرقي، متصلة بأعمال الصغانيان. وهي تقع اليوم في جمهورية أوزبكستان علىٰ الحدود بينها وبين شمال أفغانستان (التركستان الأفغانية).

وكان أول من فتحها الصحابي الحكم بن عمرو الغفاري سنة ٤٦هـ، ثم انتقضت، وأعاد فتحها موسىٰ بن عبد الله بن خازم سنة ٧٠هـ، واستقلَّ بها موسىٰ بن عبد الله عن الدولة الأموية التي أرسلت القائد المعروف المفضَّل ابن المهلَّب بن أبي صفرة، فاستعادها من عبد الله بن خازم سنة ٨٥هـ.

ووصفها ابن بطوطة في «رحلته» وقال: إنها مدينة جميلة كبيرة، يعيش أهلها في رغد من العيش (القرن الثامن الهجري). وقد اشتهر في ترمذ عدد من آل البيت النبوي، عرفوا باسم «سلطان سادات»، وقبورهم معروفة هناك.

وأشهر من ظهر من ترمذ: الإمام **أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة السُّلَمي الترمذي**، (وفاته سنة ٢٧٩هـ). وقد كُفَّ بصره في شيخوخته. وقد أدرك الترمذي من أئمة الحديث عدداً كبيراً، وأخذ عنهم، وتتلمذ لهم، منهم الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، لازمه ملازمةً طويلةً حتىٰ قال له البخاري ذات يوم: «ما انتفعتُ بكَ أكثر مما انتفعتَ بي». وأخذ عن الإمام مسلم النيسابوري صاحب «الصحيح». واشترك الأئمة الستة (البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه) في عددٍ من الشيوخ تتلمذوا عليهم جميعاً.

وللترمذي مصنفات كثيرة، أشهرها: «الجامع الصحيح» المعروف باسم سنن الترمذي، وله كتاب «الشمائل» في شمائل النبي محمد ﷺ، وكتاب «العلل» في علم الحديث، وغيرها كثير.

ومن علماء ترمذ المشهورين: **محمد بن علي الترمذي** المعروف بالحكيم الترمذي، وغيرهم كثير[1].

ومن مدنها: **فرغانة**[2]، وهي إقليمٌ ومدينة، وتقع فرغانة اليوم في جمهورية قرغيزيا ما عدا خوقند وما حولها، فتقع اليوم في جمهورية

---

(١) «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» (٢: ٥٢٣-٥٣٣) فصل ترمذ ومن ظهر بها من العلماء.

(٢) «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» (٢: ٥٣٥-٥٤٥).

طاجكستان. وفي خجندة (خوقند) يوجد قبر الإمام عبد الله بن علي زين العابدين ابن الإمام السبط الحسين، وقد توفي سنة ١١٣هـ.

وكان يطلق علىٰ هذا الإقليم اسم فرغانة، وكانت بلاد ما وراء النهر تقسم إلىٰ ستة أقاليم هي: فرغانة، وأسبيجاب، والشاش، والصغد، وبخارىٰ، وأسروشنة.

وقد وصف ياقوت الحموي فرغانة فقال عنها: «مدينة وكُوَرٌ واسعة وراء النهر متاخمةٌ لبلاد تركستان في زاوية، من ناحية هيطل، من جهة مطلع الشمس (أي الجهة الشرقية) علىٰ يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخيرات، واسعة الرُّستاق[1]، يقال كان بها أربعون منبراً (تقام بها الجمعة)، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً (الفرسخ ثلاثة أميال). ومن ولايتها خجنده (خوقند)». ويصف كثرة مزروعاتها من التفاح وسائر الفواكه، وأنواع الرياحين، وأنها مباحة لمن أرادها. وعاصمتها أَخْسِيْكَث، تقع علىٰ شط سيحون (سرداريا) الأيمن (أي الجهة الشرقية منه)... وكانت المدينة تمتد لأكثر من ثلاثة فراسخ (تسعة أميال). وكانت البساتين داخل وخارج المدينة، ومزارع كثيرة ومروج، تليها رمال تمتد بمقدار مرحلة. وفي فرغانة بقرية كاخ يوجد قبر فاتح بلاد ما وراء النهر قتيبة بن مسلم الباهلي المتوفىٰ سنة ٩٦هـ.

ومن علمائها أبو الوفاء **محمد بن محمد بن القاسم الأَخْسِيْكَثي** (وفاته سنة ٥٢٠هـ)، كان إماماً في اللغة. وكان أخوه **أحمد بن محمد بن القاسم** أديباً فاضلاً شاعراً... وقد أقاما بمرو.

---

(١) الرُّستاق: السواد والقرىٰ. «القاموس».

ومنها: **نوح بن نصر بن محمد الفرغاني الأخْسِيْكَثي**، قدم هَمَذان سنة ٤١٥هـ، وروىٰ الحديث، وسمع بالعراق وخراسان والشام.

وقد اشتهرت خجنده (خوقند) بكثرة زروعها وكرومها وفواكهها، وتقع علىٰ شاطئ سيحون (سرداريا)... وهي مدينة نزهة، كما يقول ياقوت، ليس بذلك الصقع أنزه منها ولا أحسن فواكه منها. وينسب إليها: **أبو عمران موسىٰ بن عبد الله المؤدِّب الخجندي**، أخذ الحديث عن البزار وغيره... وكان أديباً فاضلاً صاحب حِكَم وأمثال.

وتعتبر مرغينان من مدن فرغانة، وتليها مدينة قُبا. ومن المدن الهامة أنديجان. وقد ذكر بارتولد في كتابه «التركستان» أن في منطقة أسبيذ بولان بفرغانة قبور ألفين وسبعمئة من الصحابة والتابعين الذين بعثهم عثمان بن عفان رضيَ الله عنه تحت إمرة محمد بن جرير، فاستشهدوا جميعاً هناك. وفي رباط سرهنك من قرىٰ فرغانة قبر قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح بلاد ما وراء النهر.

ومن علماء فرغانة: **أحمد بن كثير الفرغاني المهندس** الذي أنشأ مقياس النيل في الروضة (القاهرة). ومنها: **أحمد بن عبد الله الفرغاني** (وفاته ٣٩٨هـ)، اشتهر بمؤلفاته التاريخية. ومنها: **علي بن أبي بكر الفرغاني المرغيناني (وفاته ٥٩٣هـ)**، المفسِّر الفقيه. ومنها: **صاحب المنتخَب الحُسَامي في أصول الفقه حسام الدين محمد بن محمد الأخْسِيْكَثي** (وفاته ٦٤٤هـ).

ومنها: **نَسَف**[١]، وهي مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق، بين جيحون **(أموداريا)** وسمرقند، وهي نخشب نفسها. وتقع اليوم جنوب بخارىٰ في

---

(١) «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» (٢: ٥٤٧-٥٥٢).

الطريق إلىٰ بلخ (شمال أفغانستان)، أي أنها تقع في جمهورية أوزبكستان. وقد خرَّبها المغول ثم قامت مرة أخرىٰ باسم «قِرشي» التي تعني القصر بلغة المغول؛ لأن الخان كبك ـ وهو من سلالة جغتاي بن جنكيزخان ـ بنى هناك قصراً، فقامت المدينة من جديد.

ومن أعلامها: **أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي** صاحب «مدارك التنزيل» في تفسير القرآن الكريم، و«المنار» في أصول الفقه وشرحه، و«كشف الأسرار»، و«الوافي في الفروع». . . إلخ. وكانت وفاته سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م.

ومنها: **أبو الفضل برهان الدين محمد بن محمد النسفي** (٦٠٠-٦٨٧هـ/ ١٢٠٣-١٢٨٩م)، متكلم فقيه حنفي، سكن بغداد، له «الواضح» تلخيص تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير)، و«الفصول» في علم الجدل، و«القوادح الجدلية»، وله «شرح الأسماء الحسنىٰ»، وغيرها كثير.

ومنها: **الحافظ عبد العزيز بن محمد بن عاصم النسفي** النخشبي (ونخشب هو اسم لنسف). . . تنقل في البلاد لطلب الحديث ثم عاد إلى موطنه، وتوفي سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م.

ومنها: **أبو العباس جعفر بن محمد المستغفري النسفي** (٣٥٠-٤٣٢هـ/ ٩٦١-١٠٤١م)، خطيب نسف وإمامها، فقيه ومحدِّث ومؤرخ، له «الشمائل والدلائل ومعرفة الصحابة الأوائل»، وله في الحديث «المسلسلات»، وفي التاريخ «تاريخ نسف» و«تاريخ كش»، وله كتابٌ في الطب النبوي، ويعتبر من أوائل من كتبوا كتباً مستقلةً بعنوان «الطب النبوي».

ومنها: **أبو إسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفي** (المتوفىٰ سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م)، محدِّثٌ مشهور، وكتَبَ في الحديث والتفسير.

ومنها: الحسين بن خضر النسفي، فقيه حنفي، تولىٰ القضاء في بخارىٰ ونواحيها، وبها توفي سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م. له عدة مؤلفات منها: «الفوائد» و«الفتاوىٰ»، وكلاهما في الفقه.

ومن جمهورية تركمنستان: مدينة مرو[١]، (تنطق مروة، والنسبة إليها مروزي، والروس يسمونها ماز، المعروفة بمرو الشاهجان.. والشاهجان لفظةٌ فارسية، تعني السلطان أو روح السلطان، والمقصود أن مرو هيَ سلطانة المدن وروحها. وهناك مرو أخرىٰ قريبة منها تسمىٰ مرو الروذ، وهذه توجد في شمال غرب أفغانستان اليوم، وهي أصغر من الشاهجان، وتقع علىٰ نهر الروذ وهو نهر مورغاب.

وقد وصفها ياقوت الحموي في «معجم البلدان»، وأنّ بها قلعة (قهندز)، ويحيط بها ربض وأسواق، ويجري فيه نهران صغيران يخترقان شوارعها، ومنها سَقْيُ ضياعها. ويقول إنه تركها سنة ٦١٦هـ قبل أن يغزوها التتار ويخربوها، وقد مدح أهلها وحسن أخلاقهم، وأعجب أيما إعجاب بكثرة مكتباتها العامة. قال: وفيها عشر خزائن للوقف لم أرَ في الدنيا مثلها كثرةً وجودة، وكانت سهلة التناول، ولا يفارق منزلي منها مئتا مجلد وأكثر، بغير رهن، فكنت أرتع فيها، وأقتبس من فوائدها لهذا الكتاب (أي معجم البلدان) وغيره مما جمعته، فهو من تلك الخزائن.

ومن أشهر من أخرجتهم مرو: الإمام الزاهد المجاهد المحدِّث **عبد الله ابن المبارك، أبو عبد الرحمٰن، الحنظلي** بالولاء، التركي بالجنس، المَرْوَزِي

---

(١) «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» (٢: ٥٥٣-٥٨٩)، فصل: تركمنستان (مرو) ومن ظهر بها من العلماء.

مولداً ونشأة. كان أبوه تركياً مولىً لرجل من التجار من بني حنظلة، فنسب إليه نسبة ولاء، وأمه تركية خوارزمية.

ولد في مرو سنة ١١٨هـ/ ٧٣٦م، وأخذ عن علمائها ثم ارتحل في طلب العلم، وأصبح حجة ثقةً في علم الحديث، والفقه، والعربية، وأيام الناس (أي تاريخ الغزوات). كان يغزو عاماً ويحج عاماً. ورغم تبحره في العلوم إلَّا أنه كان يتكسب بالتجارة، وله تجارة رابحة، وهو الذي ينفق علىٰ تلاميذه، ومن يحج معه أو يغزو. وكان إماماً في الزهد؛ إذ لم تدخل الدنيا قلبه، وإن دخلت جيبه، يأخذها من الحلال وينفقها في الحلال، وفي سبيل الله.

وتوفي ابنُ المبارك رضيَ الله عنه عند عودته من غزو الروم من قرية بهيت على نهر الفرات سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م، بعد أن ترك ذكراً حسناً باقياً أبد الدهر، وثروةً علميةً كبيرة، وعدداً كبيراً من التلاميذ الذين انتفعوا بعلمه وخلقه وأدبه، ونشروا فضله في الخافقين.

وكان ابن المبارك من الفرسان الشجعان المجاهدين، وكم نصر الله به المسلمين! وهو أول من ألف كتاباً في الجهاد، جمع فيه آيات الجهاد والأحاديث الواردة فيه، وبعض أقوال الصحابة، كما كان أول من وضع كتاباً في الزهد، فرضي الله عن ابن المبارك.

ومن مرو أيضاً: إمام أهل السنة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي مولداً، البغدادي نشأةً ووفاة. ولد بمرو سنة ١٦٤هـ حيث كان جده والياً علىٰ مدينة (سرخس) (وهي أيضاً اليوم في تركمنستان)، كما كان أبوه قائداً لمفرزةٍ صغيرة من الجند هناك، ثم انتقل إلىٰ بغداد، وتوفي والده وهو طفل صغير. . . ونشأ فقيراً يتيماً عفيفاً. واهتم بعلم الحديث، ولزم هشيم ابن بشير بن أبي حازم الواسطي أربع سنوات يأخذ عنه الحديث. وصار الإمام

أحمد عَلَم الأعلام في الحديث في زمنه بعد أن تنقل في البلاد، وأخذ عن أجلّة العلماء، ومنهم الإمام الشافعي الذي التقاه لأول مرة في الحجاز سنة ١٨٧هـ، فأخذ عنه، وصارا صديقين حميمين، وكان أحمد لا يملُّ من الثناء علىٰ الشافعي والدعاء له. . وحفظ الإمام أحمد ألف ألف حديث، وصنّف كتاب «المسند» جمع فيه ثلاثين ألف حديث. وله كتب أخرىٰ منها: كتاب «الناسخ والمنسوخ»، وله كتابٌ في التفسير، وكتبٌ في التاريخ منها: «فضائل الصحابة»، وكتبٌ في الحديث منها «علل الحديث»، وكتابٌ في الزهد.

وكان هو إمام أهل السنة دون منازع في زمن فتنة خلق القرآن أيام المعتصم، فسُجِنَ وعُذِّب، وهو ثابت لا يتزحزح عن مبدئه. ثم ذهبت الفتنة وجاء المتوكل، وتودّد إلىٰ الإمام أحمد، وأرسل له الأموال فأبىٰ أن يقبل شيئاً منها، واعتبر أن إقبال الخلفاء عليه أشدّ من فتنة السجن والتعذيب.

ومات الإمام أحمد رضيَ الله عنه سنة (٢٤١هـ)، بعد أن نشر علم الحديث ورفع لواء السُنّة، وارتجّت بغداد وما حولها بموته، واجتمع في جنازته ألف ألف يشيعونه. . وأسلم في ذلك اليوم المهيب نحوٌ من عشرين ألفاً من اليهود والنصارىٰ، فلله درَّهُ من إمام حيّاً وميّتاً!

ومنها: الإمام الربّاني الزّاهد الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، من ضاحية مرو، ولد سنة ١٠٥هـ، وكان أول أمره شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، فسمع تالياً يتلو: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فتاب من ساعته، وصار من كبار العارفين، والعلماء العاملين العابدين، وصار لا يأكل إلاَّ من عمل يده، يشتغل بالسقاية.

وكتب الحديث بالكوفة ثم توطن مكة، شرّفها الله، فاشتهر بعابد الحرمين، وتُوفي بها سنة (١٨٧هـ). وسمع من الإمام جعفر الصادق، وعطاء بن السائب،

وحميد الطويل، وسفيان الثوري. وروىٰ عنه خلق كثير منهم: سفيان بن عيينة، ويحيىٰ القطان، وعبد الله بن المبارك، والإمام الشافعي، والحميدي، والقعنبي. وأجمعوا علىٰ توثيقه والاحتجاج به، وصلاحه وزهده.

ومنها: **إسحاق بن راهويه الحنظلي المروزي**، عالم خراسان وزاهدها، وأحد أئمة الحديث، من أهل مرو مولداً ونشأةً. ولد بها سنة (١٦١هـ/ ٧٧٨م)، وتفرّغ لعلم الحديث، وأخذ عنه الأئمة الأعلام: أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم والترمذي، وكفىٰ بذلك فخراً. استوطن نيسابور بعد أن طاف البلاد، وبها كانت وفاته سنة (٢٣٨هـ/ ٨٥٣م).

ومن مرو أيضاً: الإمام الزاهد العابد **أبو نصر بشر بن الحارث المروزي المعروف بالحافي**، ولد بمرو سنة (١٥٠هـ/ ٧٦٧م). قالوا: أسلم جده الأعلىٰ علىٰ يد الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضيَ عنه. رحل في طلب الحديث، وتوطن بغداد، وبها كانت وفاته سنة (٢٢٧هـ/ ٨٤١م). وكان يقول: «ما أقبح أن يُطلب العالم فيقال: هو بباب الأمير!». ويقول: «لا يجد حلاوةَ الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس». وكان الإمام أحمد يقول عنه: «ما له في هذه الأمة نظير». وكفى بها شهادة من الإمام أحمد بن حنبل.

واشتهر من علماء مرو: **أبو بكر عبد الرحمٰن بن أحمد القفال المروزي المشهور بالقفال الصغير الشاشي**. رحل إلىٰ العراق وإلىٰ مصر، وبها كانت وفاته سنة (٤١٧هـ/ ١٠٢٧م)، ودفن عند ضريح الإمام الشافعي. وهو من أئمة الشافعية.

ومن أهل مرو: **عبد الله بن عثمان بن جبلة الأزدي** ولاءً، المروزي مولداً ونشأةً وموطناً. مولده سنة (١٤٥هـ/ ٧٦٢م). كان حافظاً متقناً للحديث، وتولىٰ قضاء جوزجان فاستعفىٰ، وكانت وفاته بمرو سنة (٢٢١هـ/ ٨٣٦م).

والحديث عن مرو وعلمائها يطول ويحتاج إلىٰ مجلدات ضخام. وفيما سبق غنية.

ومن قرىٰ مرو: قرية بغشور. ومنها خرج الإمام البغوي الملقب بمحيي السنة، وهو الحسين بن مسعود بن محمد الفراء (٤٣٦-٥١٠هـ/ ١٠٤٤-١١١٧م)، فقيه شافعي مشهور، له كتاب «التهذيب» في الفقه الشافعي، وفي الحديث كتاب «مصابيح السنة» و«الجمع بين الصحيحين». وفاته بمَرْو الروذ (شمال أفغانستان). وله تفسير مشهور طبع بحاشية تفسير الخازن، ونقل عنه الخازنُ أغلبَ تفسيره.

ومنها: المحدث الحافظ الثقة عبد الله بن محمد المرزبان البغوي المولود سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م. كان محدِّثَ العراق في زمنه... له عدة مصنفات منها «معجم الصحابة». وله كتاب «الجعديات» في علم الحديث. وله تفسيرٌ للقرآن الكريم. وكانت وفاته ببغداد سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) بعد أن عُمِّر طويلاً (مئةً وأربع سنوات).

ومنها: شيخ الحرم علي بن عبد العزيز البغوي المحدِّث الثقة الحافظ. انتقل من قرية بغشور ـ بعد أن طلب العلم ـ إلىٰ مكة المكرمة، وبها ظهر وعلا شأنه، وبها كانت وفاته سنة (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، وله مسندٌ في الحديث.

ومن المدن المشهورة في التاريخ الإسلامي مدينة **نسا**، وهي تقع في تركمنستان اليوم. وقد ظهر منها الإمام النسائي أحمد بن شعيب، الحافظ المتقن صاحب كتاب «السنن» أحد كتب الحديث الستة المعتمدة.. وله السنن الكبرىٰ، وله كتاب «الضعفاء والمتروكون»، وله «خصائص علي» و«مسند علي» و«خصائص فاطمة»، وغيرها كثير.

ولد سنة (٢١٥هـ/ ٨٣٠م) في نسا، وتنقل في البلاد، واستوطن مصر، فلما خرج للحج ذهب إلىٰ بيت المقدس، ولما علم أهل الشام به ضايقوه؛ لِمَ لمْ

يكتب كتاباً في فضائل معاوية؟! فردَّ عليهم بما يحفظه من الأحاديث في معاوية (وهي في صحيح مسلم أيضاً)، فنقموا عليه وضربوه ضرباً مبرحاً حتىٰ مات في الطريق إلىٰ مكة، وقيل وصل مكة وبها مات وذلك سنة (٣٠٣هـ/ ٩١٥م).

ومنها: الحافظ الحسن بن سفيان الشيباني النسوي، محدث خراسان في عصره، وكان مُقدَّماً في الفقه والأدب.. مولده في نسا سنة (٢١٣هـ/ ٨٢٨م)، ووفاته بقرية قريبة منها، وذلك سنة (٣٠٣هـ/ ٩١٦م).

ومنها: حميد بن زنجويه الأزدي النسوي، تنقل في البلاد، وروىٰ عنه أئمة الحديث: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وعبد الله ابن الإمام أحمد، وغيرهم من أئمة علم الحديث. وهو صاحب كتاب «الترغيب» وكتاب «الأموال».

ومن مدن خراسان في جمهورية تركمنستان مدينة **سرخس** التي ظهر منها عدد كبير من العلماء، من أشهرهم: شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي صاحب كتاب «المبسوط» في الفقه الحنفي. أملاه وهو سجين في فرغانة، وكان طلبته يقفون تحت نافذة السجن وهو يملي عليهم حتىٰ أكمله في ثلاثين جزءاً. وله أيضاً «شرح الجامع الكبير»، وكانت وفاته سنة (٤٨٢هـ/ ١٠٩٠م).

ومن سرخس: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد الزاز السرخسي، فقيه شافعي له كتاب «الإملاء في الفقه». توفي بمرو سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م).

ومنها الإمام زاهر بن أحمد بن عيسىٰ السرخسي، الفقيه المحدث، وفاته سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م عن ٩٦ سنة. ومنها: ابن الطيب السرخسي أحمد بن محمد ابن مروان بن الطيب. فيلسوف غزير العلم بالتاريخ والسياسة. ولد ونشأ بسرخس ثم تنقّل في البلاد، وقرأ علىٰ الفيلسوف الكندي علوم الفلسفة،

ونبغ فيها، وصار أستاذاً للخليفة العباسي المعتضد، ثم قتل نتيجة للوشاة والحاسدين. له كتاب «السياسة»، وكتاب «المسالك والممالك»، وكتابان في الموسيقىٰ، و«المدخل إلى صناعة النجوم»، وكتاب في الرياضيات «الأرثماطيقي»، وكتاب «فضائل بغداد وأخبارها»، وغيرها كثير. وكانت وفاته سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م بعد أن ترك ثروة علمية واسعة.

ومن علماء سرخس: عبد الله بن سعيد السرخسي، من حفاظ الحديث، روىٰ عنه البخاري ومسلم في صحيحهما، وكفىٰ بذلك فخراً. وفاته سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م.

ومن مدن خراسان التي تقع في جمهورية تركمنستان: مدينة بيهق، وقد أخرجت الإمامَ أبا بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ/ ٩٩٤-١٠٠٦) من أَجَلِّ أصحاب الحاكم النيسابوري المحدِّث. رحل إلىٰ العراق، وطوَّفَ في الآفاق، وألَّف ما يقرب من ألف كتاب. من أشهر كتبه: «سنن البيهقي»، و«دلائل النبوة»، وله كتاب «مناقب الشافعي»، وكتاب «البعث والنشور». وجمع نصوصَ الشافعي في عشرة مجلدات حتىٰ قال عنه إمامُ الحرمين الجويني: «ما من شافعي إلاَّ وللشافعي عليه مِنّة إلاَّ البيهقي، فإنّ له المِنّة والفضل علىٰ الشافعي؛ لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آرائه»[1]. وقال عنه الذهبي: «لو شاء البيهقي

(١) قال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى، في رسالته «النظر المصيب في عتق القريب» (مخطوطة): كنتُ أسمعُ وأنا صغير من بعض مشايخي الشافعية يحكي أنّ كلَّ مَن بعدَ الشافعي للشافعي مِنةٌ عليه إلا البيهقي فله مِنةٌ علىٰ الشافعيّ، حتىٰ كبرتُ وعرفتُ ما وصلتُ إليه مِن قدْرِ الشافعي والبيهقي، فعرفتُ ـ علىٰ معرفتي بعظَمة البيهقي ـ أنّ منةَ الشافعي علىٰ البيهقي، وأنّ البيهقيَّ إنما مشىٰ في نور الشافعي المقتفي نور رسول الله ﷺ. انتهى. (الناشر)

أن يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك؛ لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف».

ومن علماء بيهق: علي بن الحسن بن فطيمة البيهقي، من تلاميذ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتقدِّم ذكره.. أصيبت يداه فقطعت أصابعه، فكان يكتب بأصابع قدمه كتابةً واضحةً مقروءة! تولّىٰ القضاء في خسروجرد، وبها كانت وفاته سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م.

ومنها: إسماعيل بن الحسين البيهقي، له عدة كتب في الفقه الحنفي منها: «الشامل» و«الكفاية»، وفاته سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م.

ومنها: أبو جعفر أحمد بن علي البيهقي، وفاته سنة (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م). عالمٌ بالقراءات واللغة، له: كتاب «المحيط بلغات القرآن»، وكتاب «تاج المصادر».

ومنها: محمد بن الحسين البيهقي، أبو الفضل، كان كاتب الإنشاء في عهد السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي، جميل الأسلوب، له مؤلفات في التاريخ، وكانت وفاته سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م.

ومن مدن خراسان: **شهرستان**، وهي ثلاث مدن عرفت بهذا الاسم، أحدها في أصبهان (إيران)، والثانية في إقليم سابور (أيضاً في إيران اليوم)، والثالثة في جمهورية تركمنستان المعاصرة. ومنها ظهر: محمد بن عبد الكريم ابن أحمد الشهرستاني (٤٦٩-٥٤٩هـ/ ١٠٧٦-١١٥٤م)، سكن خوارزم وبها اشتهر، ثم أقام ببغداد ودرّس في جامعتها النظامية. أشهر كتبه: «الملل والنحل»، وله: «تلخيص الأقسام لمذاهب الأنام»، و«غاية المرام في علم الكلام»، وله كتابٌ في العقائد، وكتابٌ في الأصول.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

فتح التركستان وانتشار الإسلام بها

بعد هذه الإلمامة السريعة بالتعريف بالتركستان ومن ظهر بها من العلماء والأئمة الأعلام، يجدر بنا أن نتعرف ـ ولو بإيجاز شديد ـ كيف دخل الإسلام إلىٰ التركستان، ثم كيف تحول هؤلاء إلىٰ قوة دافعة للإسلام نشرت هذا الدين في أصقاع واسعة وبين أمم مختلفة، كما أنهم كانوا عُدة الجيوش الإسلامية، ثم ظهر من بين هؤلاء التركستانيين عدد كبير من الدول الإسلامية. وقد تعرضنا لذلك كله بشيء من التفصيل في كتابين هما: «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» في مجلدين، إصدار دار الشروق بجدة سنة ١٩٨٣م، وقد نفد منذ زمن، والثاني: «التركستان، مساهمات وكفاح»، إصدار الدار السعودية بجدة سنة ١٩٩٠م.

فتح التركستان:

لقد تم فتح العراق وإيران وشمال أفغانستان في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه، ثم انتقضت بعض هذه الأراضي في بداية عهد عثمان رضيَ الله عنه، فأعاد عثمان الأراضي التي انتقضت، وبدأ عهد فتح خراسان.

وخراسان مقسَّمة اليوم بين ثلاث دول هي: إيران، وشمال أفغانستان، وجمهورية تركمنستان. وقد فتح عبد الله بن عامر بن كريز والي عثمان علىٰ البصرة بيهق (في تركمنستان حالياً)، ونيسابور (في إيران اليوم). ووجَّه الأحنفَ

ابن قيس لفتح طخارستان، وهي في شمال أفغانستان، وتشترك في حدودها مع جمهورية أوزبكستان. وتوجه عبد الله بن عامر بن كريز إلىٰ مرو ففتحها صُلحاً علىٰ ألف ألف درهم كل عام، ثم توجَّه إلىٰ خوارزم، ولم يقدر عليها، وصالح أهل بلاد ما وراء النهر.

ويقول بارتولد في كتابه الموسوعي «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي» إن الخليفة عثمان بن عفان قد أرسل مجموعة كبيرة من الجنود وصلت إلىٰ أسبيذ بولان في إقليم فرغانة شرق نهر سرداريا (سيحون)، وإن بهذه المنطقة قبورَ ٢٧٠٠ من الصحابة والتابعين الذين استشهدوا في هذه المعارك، وهو أمر لم يكن معروفاً من قبل، حيث إنّ المسلمين ـ حسب تلك المعلومات ـ لم يقطعوا نهر أموداريا (جيحون) إلاّ في عهد معاوية بن أبي سفيان، ولم يوطّدوا ملكهم علىٰ هذا النهر إلاّ بعد أن قام قتيبة بن مسلم الباهلي بغزو بلاد ما وراء النهر، وذلك فيما بين عام ٨٦هـ و٩٤هـ. وهذا يدلُّ علىٰ أن فتح بلاد ما وراء النهر بدأ مبكراً في عهد عثمان رضيَ الله عنه، ثم انتقضت تلك الأراضي في أثناء الفتنة الكبرىٰ، وما لاقاه الإمام علي من انتقاض الأمر عليه، وخوضه المعارك مع المنتقضين، والناكثين، والخارجين، حتىٰ استشهد عليه السلام. ثم بدأت الكرَّة مرةً أخرىٰ بعد أن استقرَّ الأمر لمعاوية. وكان الصحابي الحكم بن عمرو الغفاري هو أول من عبر نهر جيحون (أموداريا)، وغزا بلاد الصغانيان وذلك سنة ٤٧هـ، ثم غزا عبيد الله ابن زياد بلاد ما وراء النهر سنة ٥٣ و٥٤هـ، واضطرت الخاتون ملكة بخارىٰ إلىٰ مصالحته علىٰ ألف ألف درهم.

وقد نقضت الخاتون العهد فولَّىٰ معاويةُ سعيدَ بن عثمان بن عفان فحاربَها سنةَ ٥٦هـ، ودخل بخارىٰ وسمرقند، واستشهد في فتح سمرقند قُثَم بن العباس رضي الله عنهما. ثم توجه سعيد بن عثمان إلىٰ ترمذ ففتحها صلحاً.

ثم انتقضت هذه البلاد مرةً أخرىٰ، ففتح ترمذ موسىٰ بن عبد الله بن خازم سنة ٧٠هـ، واستقلَّ بها عن حكم الأمويين، ولكن تم إخضاعه سنة ٨٥هـ. ثم ولَّىٰ الحجاج بن يوسف الثقفي أمر ما وراء النهر إلىٰ قتيبة بن مسلم الباهلي، ففتحها بلداً بلداً، وأعاد فتح بخارىٰ، وبيكند، وترمذ، والشاش، وفرغانة، حتىٰ وصل إلىٰ كشغر (وهي اليوم في التركستان الشرقية التي استولت عليها الصين). . وحتىٰ خاف منه إمبراطور الصين، فأرسل له طشتاً فيه تراب الصين ليبرَّ بقسمه، ويدوسه بقدمه، مع هدايا وأموال كثيرة.

وفي عهد قتيبة بن مسلم أسلم ملك بخارىٰ طغشاده بن الخاتون علىٰ يد قتيبة نفسه، وبقي ملكاً عليها. وانتشرت الدعوة إلىٰ الله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأسكن قتيبةُ العربَ والمسلمين في هذه المدن حتى يعلّموا الناسَ دينَ الإسلام. وكانت تلك سياسةً حكيمةً أدت إلىٰ انتشار الإسلام، وحصول التزاوج بين الترك والعرب مما وطَّد الإسلام في تلك البلاد. ولا يزال قبر قتيبة بن مسلم معروفاً في رباط سرهنك بقرية كاخ من إقليم فرغانة، ويعرفه الأهالي باسم الشيخ قتيبة من أعمال أنديجان كما يقول بارتولد.

وفي عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل اشتكىٰ أهل سمرقند قتيبة ابن مسلم الباهلي، وأنه عندما دخل مدينتهم وافقهم علىٰ أن يسحب جنده منها، ولكنه لم يفعل خشية انتقاضهم، فجعل لهم عمر بن عبد العزيز قاضي تلك المنطقة يحكم في القضية. فلما سمع القاضي الدعوىٰ والردَّ عليها أقرَّ أهل سمرقند، وطلب من الوالي أن يخرج جنده من سمرقند، فعندئذ قال أهل سمرقند: لم نرَ ولم نسمع مَن هو أعدل منكم أيها المسلمون! فطلبوا بقاء الجند، ودخلوا في دين الله أفواجاً. وكان للداعية الإسلامي صالح بن طريف المكنّىٰ بأبي الصيداء دور بارز في إسلامهم، فأسقط عنهم الخليفة

العادل الجزية، وقال لعمّاله: إنَّ الله قد بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه جابياً، وإنِّي علىٰ سنة محمد ﷺ.

ولكن الأمور لم تسر علىٰ هذا المنوال بعد وفاة هذا الخليفة العادل، وعادت الجزية تفرض علىٰ من أسلم حتىٰ ثار الدعاة إلىٰ الله مع أهل بلاد ما وراء النهر، واستمرت الثورة من سنة ١١٠ إلىٰ ١١٥هـ، فلمَّا أخمدت هذه الثورة قامت أخرىٰ سنة ١١٦هـ، وكانت بداية ثورة العباسيين بقيادة أبي مسلم الخراساني الذي أجَّج الثورة علىٰ البيت الأموي الذي لم يلتزم بتعاليم الإسلام في آخر عهوده، وانتشر الظلم في كثيرٍ من أرجاء الدولة. وفي فترة وجيزة اكتسح أبو مسلم الخراساني قوات الأمويين، وابتدأ ثورته من شمال أفغانستان وبلاد ما وراء النهر، ثم انتقل إلىٰ خراسان وفارس حتىٰ استطاع أن ينهي الدولة الأموية، وأن يقيم دولة بني العباس.

وفي عهد المأمون العباسي قامت الدولة الطاهرية، وجعل المأمون أمرَ خراسان وجميع بلاد ما وراء النهر بيد طاهر بن الحسين الذي حقَّق له النصر على أخيه الأمين... وبذلك بدأت شوكة الفرس تقوىٰ، واستمرت هذه الدولة من سنة ٢٠٥هـ حتىٰ قضىٰ عليها يعقوب بن الليث الصفَّار سنة ٢٥٩هـ.

وكان للطاهريين دور عظيم في النهضة العلمية والزراعية والعمرانية والثقافية في خراسان وبلاد ما وراء النهر، وامتدت التجارة والأمن والرخاء في عهدهم. وولَّىٰ الطاهريون بني سامان حكمَ بخارىٰ، ثم امتد ملكهم ليشمل جميع بلاد ما وراء النهر، وإن كانوا تابعين للدولة الطاهرية.

وقد كان جدُّ آل سامان فارسياً مجوسياً من أعيان بلخ، فظلمه عامل بلخ وأخذ أرضه، ولكن أسد بن عبد الله القسري ـ آخر ولاة بني أمية وأفضلهم ـ

أعاد الأرض لسامان هذا، فأعجب سامان بتلك الأخلاق، فأسلم وسمىٰ ابنه أسداً.

فلمَّا وقعت ثورة رافع بن الليث بعث المأمون إلىٰ أبناء سامان، وأمرهم بمعاونة قائده هرثمة، فنصروه وقمعوا ثورة رافع بن الليث، فجعل طاهر بن الحسين (حاكم خراسان) ـ بتوجيه المأمون ـ أبناء سامان حكاماً لبلاد ما وراء النهر، فولَّىٰ نوحَ بن أسد سمرقند، وجعل فرغانةَ لأخيه أحمد، وولَّى الشاش (طشقند وما حولها) يحيىٰ، وجعل هراة (في شمال غرب أفغانستان اليوم) لإلياس بن أسد، وذلك سنة ٢٠٢هـ.

وأبدىٰ هؤلاء الإخوة مهارةً وحنكةً في حكم هذه المناطق، واستتب الأمن في عهدهم، وازدهرت العلوم، ونمت التجارة، وقاموا ببناء السدود، واهتموا بالزراعة والصناعة، ونشروا الإسلام.

وفي عهد إسماعيل الساماني بلغت بخارى شأواً بعيداً في الرقي حتىٰ صارت مثابةَ العلوم وكعبة القصاد.

ولم يتوان السامانيون عن نشر الإسلام في مناطق بلاد ما وراء النهر، فبثّوا الدعاةَ إلىٰ الله والعلماءَ يوجهون الناس إلىٰ دين الله. وفي نفس الوقت يخضعون القوىٰ الكافرة المعادية المحاربة لله ورسوله... وكان لهم هذا الدور المجيد طوال حكمهم حتىٰ سنة ٣٨٧هـ عندما خضعت بلاد ما وراء النهر لحكم محمود الغزنوي آل سبكتكين.

وقد أثنىٰ المؤرخون المسلمون والمستشرقون علىٰ السامانيين الذين أقاموا العدل، ونشروا راية الإسلام. يقول بارتولد في كتابه «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي»: «وتدلُّ الوثائق التي بين أيدينا علىٰ أن

المدارس التي قامت بخراسان وما وراء النهر في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) لعبت الدور الأهم في نشر الإسلام، وأنه إذا كانت الحركة الإسلامية قد أحرزت نجاحاً خارجَ حدود ما وراء النهر فإنَّ الفضل في ذلك يرجع إلىٰ مدارس ما وراء النهر».

وقد كان للسامانيين فضل عظيم في انتشار الإسلام في قبائل الأتراك الشرقيين، ونشط الدعاة إلىٰ الله من العلماء والصوفية نشاطاً كبيراً، فأسلم استوق بغراخان ملك القراخانيين (التركستان الشرقية)، وأسلمت معه مئتا ألف خيمة، أي ما يزيد عن مليون شخص، وذلك سنة ٣٢٣هـ/ ٩٤٣م. وقد ضُربت النقود باسم هارون بغراخان حفيد استوق بغراخان، ووسع رقعة مملكته لتشمل أجزاء من التركستان الغربية. وفي عهده ظهرت نهضة علمية، وكتبت الكتب باللّغة التركية بالحرف العربي، وكانت قبل ذلك تكتب باللغة الفارسية بالحرف العربي.

وفي عهد السامانيين انتشر الإسلام في بلغار الفولجا بفضل الدّعاة إلىٰ الله والصوفية من المسلمين. ويقول بارتولد في كتابه «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي»: لقد قام هؤلاء الصوفية بدور كبير إلىٰ جانب الفقهاء في نشر الإسلام؛ فالفقهاء يخاطبون الطبقة المثقَّفة، والصوفية يتعمَّقون بالعقيدة في طبقة العوام، ويكسبون قلوب الجماهير بحياتهم المتقشِّفة وسيرتهم وزهدهم وعمق إيمانهم وصدق دعوتهم».

ويقول الدكتور حسن أحمد محمود في كتابه «الإسلام في آسيا الوسطى»: «والدور الخالد الذي قام به السامانيون ليس هو الجهاد فحسب، وإنما كسبهم عالم الأتراك الشرقيين للحضارة الإسلامية».

وقد لعب القراخانيون دوراً بارزاً بعد إسلامهم في نشر الإسلام في الربوع المحاذية لأراضيهم. وفي عام ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م استطاع القراخانيون أن يكسبوا إلىٰ صف الإسلام أكثر من عشرة آلاف خيمة من خيام القرغيز. واتّجه القراخانيون أيضاً إلىٰ جبال تيان شيان، ونشروا الإسلام هناك، كما اشتركوا مع الدعاة من خوارزم وفرغانة في إسلام البلغار علىٰ نهر الفولجا.

وسرعان ما تحولت اليغورية وثقافتهم الصينية إلىٰ العربية والطابع الإسلامي. وأول من أسلم من قبائل الأتراك الشرقيين هم قبائل القرلوق الذين عرفوا فيما بعد باسم التركمان، وتبعهم القبائل المعروفة لدىٰ المؤرخين المسلمين باسم التغزغز، وقد ظهر من هؤلاء السلاجقة الذين أقاموا دولة باذخة، واعترف لهم الخليفة العباسي بالسلطنة، وأقيمت الدعوة لهم من علىٰ المنابر، وبلغت دولتهم أوجها في عهد ملكشاه، وامتد سلطانهم بذلك من الأناضول غرباً إلىٰ حدود الصين شرقاً.

ولقد لعب السلاجقة دوراً هاماً في رفع راية الإسلام في مناطق مختلفة، واحتلوا أجزاء واسعة من الإمبراطورية البيزنطية، وصدّوا الغارات الصليبية. ولكنهم ـ كما هو معتاد في الدول الإسلامية ـ تقاتلوا فيما بينهم من أجل الملك والسلطة، فضعُفَ شأنهم، وقامت بعدهم الدولة الخوارزمية.

وقد ظهرت دول تركية عديدة كان لها شأن كبير في تاريخ الإسلام وتاريخ خراسان وبلاد ما وراء النهر (التركستان). وأهم هذه الدول:

الدولة الغزنوية:

كان البتكين ذا منزلة رفيعة عند الأمير عبد الملك بن نوح الساماني الذي عينه عاملاً له علىٰ مدينة هراة (في شمال غرب أفغانستان حالياً) سنة ٣٤٤هـ.

والبتكين هذا من التركستان الشرقية، وصار مولىً لعبد الملك بن نوح، فكان حاجبه ثم عامِلَه علىٰ هراة ثم علىٰ غزنة سنة ٣٥٢هـ.

ويعتبر سبكتكين أحد موالي البتكين، وزوج ابنته، والمؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية. وقد قام سبكتكين بعد موت ولي نعمته البتكين بحكم غزنة ومعظم الأراضي الموجودة اليوم في أفغانستان، كما أسس مدينة بشاور الموجودة اليوم علىٰ الحدود الباكستانية الأفغانية، ووطد أركان مملكة قوية (٣٦٦-٣٨٧هـ/ ٩٧٦-٩٩٦م).

وكانت علاقته بآل سامان طيبة، وحارب معهم جميع أعدائهم، وحقَّق لهم عدة انتصارات، فولاه نوح بن منصور الساماني علىٰ جميع خراسان سنة ٣٨٤هـ. فلما توفي سبكتكين تولىٰ ابنه محمود الغزنوي الحكم (٣٨٨-٤٢١هـ/ ٩٩٨-١٠٣٠م). وكان رجلاً عادلاً، شجاعاً ذكياً، يحب العلماء ويقربهم. واستطاع أن يفتح شمال الهند مما يعرف اليوم بباكستان وبنجلاديش وشمال الهند. وحقَّق انتصارات عظيمة، ونشر الإسلام في تلك الأصقاع. وحارب محمود الغزنوي الإسماعيلية الباطنية الذين قويت شوكتهم في شمال إيران. وقضىٰ علىٰ مماليك آل سامان الذين استولوا علىٰ الحكم، وسملوا عينَ منصور الساماني. ثم حارب محمود الغزنوي الدولة البويهية في الري (طهران) والجبل؛ لأنها كانت دولة شيعية.

واهتمَّ بالدعوة وبالعلم والعلماء، وكان في بلاطه أبو الريحان البيروني، وأبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، والشاعر الفردوسي صاحب الشاهنامه، والشاعر الفروخلي، والشاعر العنصري. واستمرت الدولة الغزنوية تسيطر علىٰ خراسان وأفغانستان وشمال الهند وبلاد ما وراء النهر لمدة قرن من الزمان، ثم تقلّص سلطانها، وظهرت دولة السلاجقة التي قضت عليها. وكان آخر ملوك هذه الدولة خسرو ملك المتوفىٰ سنة ٥٨٥هـ/ ١١٩١م.

الدولة السلجوقية (٤٢٩-٥٥٢هـ/ ١٠٣٨-١١٥٧م):

والسلاجقة من قبائل التغزغز (التركستان الشرقية)، وكان جدهم دقاق من بلاد كشغر، وله ولد يدعىٰ سلجوق اشتهر بالفروسية، وأعلن إسلامه مع مجموعة كبيرة من قبيلته، طواعيةً وانتقل إلىٰ التركستان الغربية، وأخذ في صد هجمات الأتراك الكفار من التغزغز. . . وأخذت قوتهم تتزايد، وأسسوا دولتهم في خراسان وأصفهان، ودعي لهم من علىٰ المنابر، وذلك منذ سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م في عهد السلطان مسعود بن محمود الغزنوي. . . وانتهز طغرل بيك السلجوقي انشغال مسعود بقتال أخيه، فاستولىٰ علىٰ جرجان وطبرستان سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، وفي السنة التالية استولىٰ علىٰ خوارزم. . وهذه الأراضي جميعاً كانت تابعة للدولة الغزنوية. وانتهت تلك المعارك بين طغرل بيك بن ميكائيل السلجوقي ومسعود بن محمود الغزنوي بانتصار السلاجقة وهزيمة الغزنويين.

وفي أثناء ظهور آل سلجوق عمّت الفتن الخلافةَ العباسية، واستبد البويهيون الشيعة بالخليفة العباسي السُنيّ، فراسله القُواد الأتراك والخليفة، يطلبون منه أن يدخل بغداد، بعد أن استتب له الأمر في خراسان وأصفهان وفارس وجرجان وطبرستان، فدخل طغرل بيك بغداد في ٢٢ رمضان ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م بحفاوة بالغة، وأزاح بذلك آخر سلطان من سلاطين آل بويه الملقب بالملك الرحيم.

وامتد سلطان خليفة طغرل بيك إلىٰ جميع خراسان، وبلاد ما وراء النهر، وأفغانستان، والعراق، والشام، ثمَّ بلغت الدولة أقصىٰ مداها في عهد ملكشاه ابن ألب أرسلان الذي تولىٰ المُلك سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م، واشتهر بالحكمة والشجاعة وتقريب العلماء، وامتدت فتوحاته حتىٰ وصلت حدود الصين

شرقاً، والأناضول غرباً، وبلاد الروس والقوقاس شمالاً، واليمن والحجاز جنوباً. وفي عهد ألب أرسلان السلجوقي انتشرت المدارس علىٰ يد وزيره نظام الملك، وإليه تنسب المدارس النظامية في بغداد وغيرها، وتولىٰ فيها التدريس أفذاذُ العلماء من أمثال أبي حامد محمد بن محمد الغزالي.

واستطاع ملكشاه أن يسوس هذه المملكة الواسعة بفضل حزمه وذكائه، يساعده وزيره ووزير أبيه نظام الملك، علي بن إسحاق الطوسي.

وعندما زار ملكشاه بغداد فوَّض إليه الخليفة العباسي أمر البلاد والعباد، وأصهر الخليفة إلىٰ ملكشاه.

وبموت ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م انتهىٰ العصر الذهبي للدولة السلجوقية، ثم تولّىٰ ـ بعد فترة ـ سنجر بن ملكشاه الحكم بعد معارك طاحنة مع إخوته أضعفت الدولة، وأوهنت قواها، مما حدا بـ(اتسز) المملوك التركي الذي ولاه سنجر منطقة خوارزم أن يحارب سيده سنجر، ولكن سنجر انتصر عليه، وعفا عنه، وقد فعلها اتسز أكثر من مرة، وهزمه سنجر مرات، ولكنه كان يضطر لإعادته لحكم خوارزم بسبب اضطراب الأمور فيها.

وفي سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م هُزم سنجر علىٰ يد الأتراك الكفار المعروفين باسم الخطا، واستولىٰ ملكهم كورخان علىٰ مرو وسرخس ونيسابور وبيهق، ولكن سنجر عاد وانتصر عليهم.

وحارب الغزَّ من قُطّاع الطُّرُق، وهم من المسلمين، وانتهىٰ الأمر بأسر سنجر وزوجته لدىٰ الغز الذين كانوا يبدون له الاحترام الفائق أثناء أسره. واستغل قواد سنجر والإسماعيلية غيابَ سنجر، فاستولوا علىٰ العديد من المناطق. ولمّا ماتت زوجة سنجر وهي معه في الأسر، استطاع سنجر أن يفرَّ منهم، فوصل إلىٰ عاصمته مرو، ولكنه وجدها خربةً، والخزائن خالية،

والرَّعية مشرّدة، فانتابه الحزن، وسقط فريسة المرض، وكانت وفاته بمرو سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م.

وتفرّق السلاجقة بعدها، واستقل كل واحد منهم بقطر، وعرفوا بسلاجقة العراق، وسلاجقة كرمان، وسلاجقة الروم (آسيا الصغرىٰ)، وهم الذين بَقَوا إلى ما بعد الغزو المغولي المدمر. وقد بقيت دولة سلاجقة الروم إلىٰ عصر علاء الدين كيقباذ الثاني (٦٩٦-٧٠٠هـ/ ١٢٩٦-١٣٠٠م). وكانت عاصمتهم قونية، وانتشر في عهدهم العديد من المدارس والمساجد الجميلة والفرق الصوفية وخاصة الطريقة المولوية المنسوبة إلىٰ مولانا جلال الدين الرومي ـ الذي يرتفع نسبه إلىٰ أبي بكر الصديق ـ صاحب ديوان «المثنوي» الذي لقي رواجاً كبيراً في الآونة الأخيرة في الغرب، وترجمته آنا شمل إلىٰ الألمانية، كما ترجم بجميع اللغات الأوروبية وخاصة الإنجليزية، وصار أكثر الدواوين الشعرية انتشاراً في الولايات المتحدة الأمريكية، وطبعت منه ملايين النسخ.

الدولة الخوارزمية (٤٧٠-٦٢٨هـ/ ١١٧٧-١٢٣١م).

كان أنوشتكين أحد المماليك الأتراك في بلاط السلطان السلجوقي ملكشاه، ووصل إلىٰ مرتبة طشتدار (أي المشرف علىٰ الأواني السلطانية)، وكانت نفقات هذا الجانب تغطىٰ من خراج خوارزم، فتولىٰ خراج خوارزم، ثم ولاه السلطان حكم خوارزم سنة ٤٧٠هـ/ ١١٧٧م، وتولىٰ بعده ابنه قطب الدين محمد أمرَ خوارزم، وساسها بالعدل والحكمة.

ولما تولىٰ اتسز عام ٥٢٢هـ/ ١٢٢٧م حارب السلطان سنجر الذي هزمه أكثر من مرة، وفي كل مرة يعيده السلطان سنجر إلى حكم خوارزم بسبب الفتن التي فيها. واستطاع اتسز أن يفتح أراضي واسعةً في بلاد القبچاق

(قازاخستان حالياً) الذين لم يسلموا بعد، واستولىٰ علىٰ مدينة جَنَد الهامة. وفي عام ٥٥١هـ توفي اتسز تاركاً لخلفة دولةً واسعةً من التركستان الشرقية إلىٰ خراسان شاملةً جميع بلاد ما وراء النهر. واستطاع إيل أرسلان خليفة اتسز أن يستولي علىٰ شمال أفغانستان. وتولىٰ بعده تكش الذي هزم قوات طغرل ابن ألب أرسلان السلجوقي الذي قتل في المعركة سنة ٥٩٠هـ. ووسع تكش مملكته علىٰ حساب دولة الخطا الكفّار، ثم خلفه ابنه علاء الدين محمد سنة ٥٩٦هـ، وفي أيامه بلغت الدولة أقصىٰ حدودها، واتسعت من العراق غرباً حتىٰ تركستان في الشرق شاملةً بذلك بحر قزوين إلىٰ الخليج الفارسي (العربي). وقضىٰ علاء الدين محمد علىٰ الدولة الغورية في أفغانستان، فانسحبوا إلىٰ الهند، وأقاموا فيما يعرف اليوم ببنجلاديش.

وكانت حياة علاء الدين محمد مليئةً بالحروب والمشاكل، وخاصة مع أمه التي كانت تتدخل في شؤون المُلك، وتعتمد علىٰ قبيلتها التركية القوية.

ومما زاد الأمور تعقيداً أن علاء الدين أراد أن يحلَّ محلَّ السلاجقة لدىٰ الخليفة العباسي، ولكن الخليفة رفض أن تقام له الدعوة من المنابر، فغضب لذلك علاء الدين، وأعلن تمرّده علىٰ الخليفة العباسي، وتعيين خليفةٍ علوي (ينتسب إلىٰ الإمام علي بن أبي طالب)، واتخذ المذهب الشيعي في بلدٍ كل سكانه من السنة، فثار عليه العلماء والعامة، وساءت أمور دولته بسبب الخلافات بينه وبين أمه، وبينه وبين أبنائه وقادته، وبينه وبين العلماء والعامة.

ورغم أن دولة علاء الدين محمد الخوارزمي كانت تبدو قوية في ظاهرها إلّا أنها من الداخل كانت تعاني من الاضطراب والاختلاف بين السلطان وأمه، والسلطان والخليفة العباسي، والسلطان والعلماء.. مما جعل الدولة تنهار عندما غزاها جنكيزخان المغولي سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م.

وقد أدَّىٰ الصراع بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي وبين الخليفة العباسي الناصر لدين الله إلىٰ أن يقوم الناصر بمراسلة الإسماعيلية (الحشاشين) في قلعة الموت، ويتحالف معهم ضد خوارزمشاه، بل وصل الأمر إلىٰ أن يقوم خليفة المسلمين العباسي بمراسلة جنكيزخان يغريه بالهجوم علىٰ خوارزم بعد أن بلغه انتصار قوات جنكيزخان علىٰ شمال الصين وإقامة مملكة قوية هناك[١].

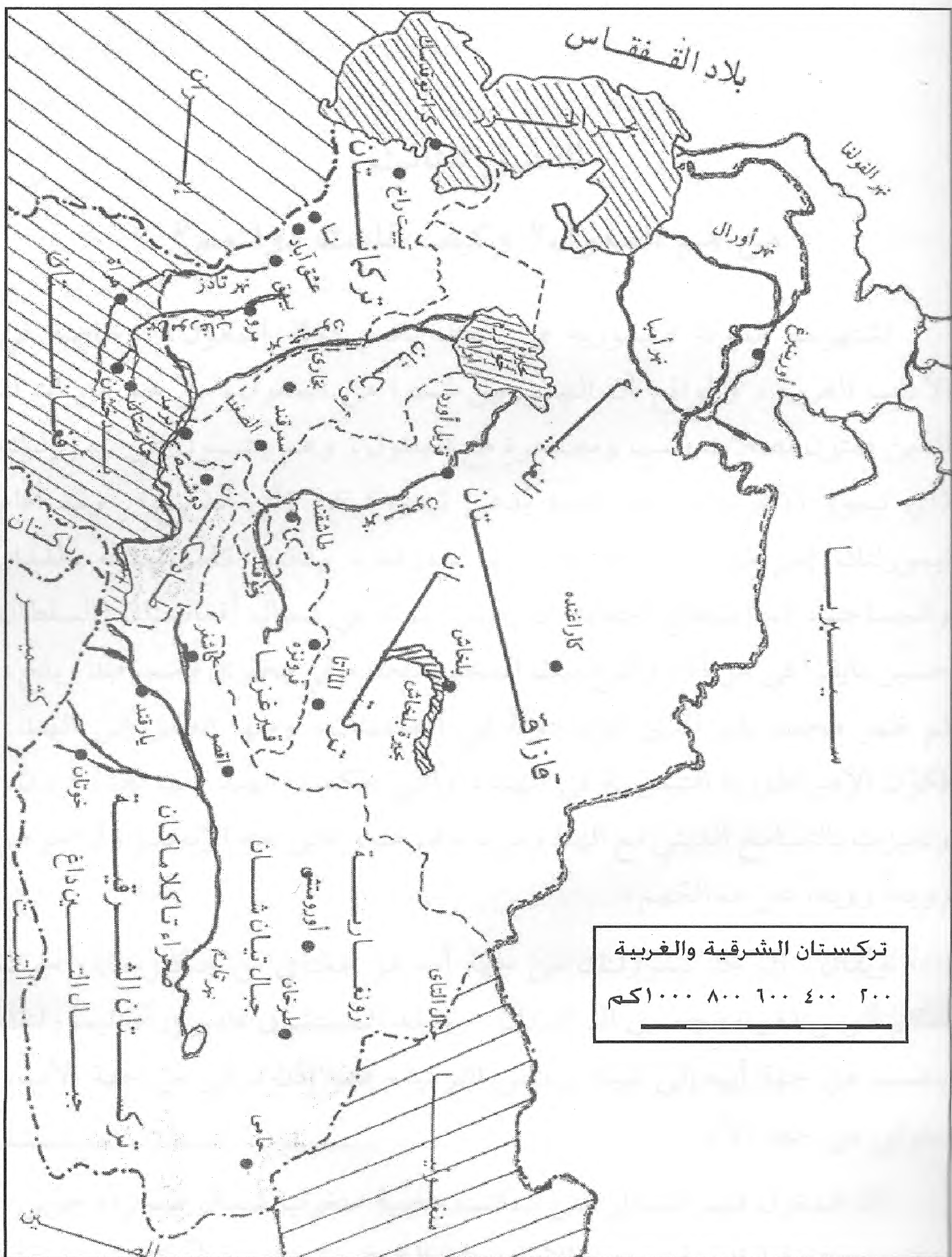
وهذا يوضح إلىٰ أي مدىٰ بلغت الحماقة والطيش لدىٰ حكّام المسلمين حتىٰ يستعينوا بأعداء الإسلام ضد أعدائهم من أبناء دينهم. وهو أمر يتكرر، تشاهده في الحروب الصليبية، وفي إسبانيا النصرانية. وكانت هذه السياسة الخرقاء سبباً في هلاك المسلمين، وذهاب دولتهم، ووقوعهم جميعاً تحت براثن أعداء الإسلام.

وفي الفصل التالي سندرس من هم المغول، وكيف قامت دولتهم، وكيف قضوا علىٰ الممالك الإسلامية وأولها الدولة الخوارزمية. ثم سندرس كيف دخلوا في الإسلام بعد أن تنصَّر كثيرٌ منهم، ودخل البوذيةَ آخرون، وبقي علىٰ الدين الساماني أكثرهم. وكانت كل القوىٰ الدينية تسعىٰ لاكتسابهم إلىٰ صفها؛ حيث ظهروا كأكبر قوة حربية في التاريخ، فكان كل دين من الأديان الثلاثة (البوذية والمسيحية والإسلام) يسعىٰ لاكتسابهم إلىٰ صفه. وكتب الله النصر للإسلام في ذلك بفضل جهود آلاف العلماء المخلصين، وبفضل رجال دهاة تولوا الوزارات للمغول، وبفضل الدعاة إلىٰ الله من الصوفية.

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٩ : ٣٦١).

الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها



تركستان الشرقية و الغربية



الفصل الثالث

من هم المغول؟ وكيف قامت دولتهم؟

اشتهرت الدولة التيمورية في الهند باسم دولة المغول، وخاصة في الآداب الغربية، والواقع أن التيموريين ليسوا من المغول، بل هم من الترك الذين يمتون بصلاتِ نسبٍ ومصاهرةٍ مع المغول، وهم ينتسبون إلىٰ تيمورلنك (أي تيمور الأعرج)، وهو نفسه يُدعىٰ تيموركركن (أي المليح). وقد أقام تيمورلنك إمبراطورية باذخة عاصمتها سمرقند، ولكنها كانت مليئة بالدمار والجماجم، ثم استطاع أحفاده أن يقيموا دولةً في شمال أفغانستان (السلطان حسين بايقرا في هراة)، وألوغ بيك المحب للعلوم في بخارىٰ وسمرقند وبلخ، ثم ظهر محمد بابر الذي كوَّن دولةً في أفغانستان، ومنها انطلق إلىٰ الهند، فكوّن الإمبراطورية التيمورية في الهند، والتي حكمت الهند كلها لعدة قرون، وتميزت بالتسامح الديني مع الهندوس، وغيرهم، حتىٰ جاء الإنجليز وأزاحوهم رويداً رويداً عن ممالكهم.

ويُقال: إن جد تيمورلنك من جهة أمه هو جغتاي بن جنكيزخان، حيث حكم ألوس (قبيلة) جغتاي التركستان. ويؤكد المستشرق فامبري أن تيمورلنك ينتسب من جهة أبيه إلىٰ قبيلة برلاس التركية، فهو إذن تركي من جهة الأب، مغولي من جهة الأم.

أمَّا المغول فهم القبائل التي سكنت هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي، وتنقسم منغوليا إلىٰ قسمين: **الأول: شماليٌّ غربيّ**، به جبالٌ كثيرة وبه عدة

أنهار. **والثاني: جنوبي شرقي**، ويشمل صحراء جوبي وسهل شامو الذي تغطيه الحصباء الشديدة الصلابة، ولا توجد به أنهار إلَّا علىٰ الحافات.

وتوجد بعض البحيرات في منغوليا، ومُناخ هذه البلاد شديد البرودة في الشتاء، (تصل إلىٰ ٥٨ تحت الصفر!)، وشديد الحرارة في الصيف، (تصل إلىٰ ٦٠ مئوية!)، بالإضافة إلى الرياح الشديدة.

وكانت قبائل المغول في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) تنقسم إلىٰ: **قبائل رعوية** لديها الماشية والخيول وتنصب خيامها من اللبّاد، وتنتقل بماشيتها من مكان إلىٰ آخر طلباً للمرعى، وكانت القبائل الأخرىٰ تعيش علىٰ الصيد. وهؤلاء يصيدون الأسماك من البحيرات والأنهار الموجودة، أو يصيدون الحيوانات البرية في الغابات، وخاصةً السمّور الذي يتميز بفرائه الجميل، والذي كان هؤلاء الصيادون يجمعونه ويبيعونه للتجار. ويعيش هؤلاء الصيادون في أكواخ بسيطة من أوراق الشجر وأخشابها.

ولا شكَّ أن البيئة القاسية قد فرضت علىٰ طوائف المغول والأتراك الرعويين أن يعيشوا حياةً بدويةً قاسيةً جعلت منهم مقاتلين أشداء، وفي نفس الوقت مجموعات متناحرة، كثيرة النزاع، وليس لها أي حضارة.

وقد كانت هذه المجموعات البدوية تمارس ضغطاً مستمراً علىٰ الدول المتمدنة المجاورة، وكانوا يُدخلون الرُّعب علىٰ هذه البلدان بغاراتهم المتكررة، وتحتاج هذه الدول إلىٰ قوات كبيرة لصدّهم وإخضاعهم، كما اضطرت الصين لبناء سورها العظيم لتجنّب هجماتهم المتكررة.

وقد وصف أحد الجنود الرومان الذين قُدِّر لهم أن يصلوا إلىٰ الاستبيس (سيبيريا الجنوبية) هؤلاء الجنود بأنهم «يُدخلون الرعب في النفوس وهم

علىٰ ظهور جيادهم.. وهم صغار الأجسام إذا ما وقفوا، ولكنهم عمالقة إذا ما امتطوا ظهور جيادهم».

ويمتُّ إلىٰ قبائل المغول هذه قبائل أخرىٰ عرفت باسم التتار، (وقد عرف المسلمون قبائل جنكيزخان وأحفاده باسم التتر). والمغول والتتر التونغز (بدو الأتراك)، جميعهم من الجنس الألتائي، نسبةً إلىٰ جبال ألتاي التي تقع شمال صحراء جوبي. وكلهم بدو رحّل، ويقطنون المناطق الشمالية من آسيا (سيبيريا المغولية والاستيبس). ولهم لغات متشابهة، وأشكالهم تكاد تكون متماثلة: وجوههم عريضة، ورؤوسهم كبيرة، وأنوفهم فطساء، وعيونهم غائرة صغيرة ذات جفون مسترخية، وشفاههم غليظة، وذقونهم جرداء، وشعور رؤوسهم سوداء... وهم قصيرو القامة، ذوو أجسام ممتلئة، وعضلات قوية، تناسب حياتهم الرعوية الشاقة وركوبهم الخيل.

وقبائل التتار يسكنون المنطقة التي تُحَدُّ شمالاً بنهرَي أرقون وسلنجا ومملكة القرغيز، وشرقاً بإقليم الخطا (شمال غرب الصين)، وغرباً ممالك الأويغور، وجنوباً إقليم التبت ومملكة التانجوت.

وكانوا في أغلب الوقت مطيعين لملوك الخطا.. واشتهروا بشدة البأس والشكيمة، ويعيشون في صراع دائم فيما بينهم، ولولا ذلك لتغلّبوا علىٰ الخطا وغيرهم.

وانتشر استعمال لفظ التتار ليشمل جميع تلك القبائل بما فيهم المغول وبدو الأتراك التغزغز. والغريب حقاً أن جنكيزخان المغولي قام بحرب عنيفة بلغت حد الإبادة ضد هؤلاء التتار الذين حاربوه وناوشوه وقاوموه حتىٰ قضىٰ عليهم، ولم يبُق إلاّ النساء، فتزوج منهم المغول، فكان من النسل

الجديد عدد كبير من قادة جيوش جنكيزخان وجنوده. ومن هنا ظهر اسم التتار مرةً أخرىٰ كعَلَمٍ علىٰ المغول.

ومنهم قبائل كرايت Kerait، وموطنهم الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي، وجنوبي بحيرة بايكال Baikal حتىٰ سور الصين. وهم أصلاً من قبائل المغول. والغريب حقاً أنهم قد دخلوا المسيحية منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي (٣٩٨هـ/ ١٠٠٧هـ) عندما تنصَّر ملكهم. وكانوا أكثر تنظيماً وانضباطاً من القبائل المغولية الأخرىٰ. وكانوا هم أقوىٰ قبائل المغول في القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين). وكان «طغرل» Toghril من أشهر ملوكهم، واستطاع التغلب على عمه كورخان، الذي كان ينافسه علىٰ العرش، وقد سانده في ذلك رئيس عشيرة مغولية يُدعىٰ «يسوكاي»، هو والد جنكيزخان. وكذلك استطاع أن يهزم التتار تلبية لرغبة إمبراطور الصين الشمالية (أسرة كين التي كانت تحكم شمال الصين وممالك الخطا ومنشوريا ومنغوليا، وكانت عاصمتهم بكين، ثم انتقلت بعد ذلك إلىٰ «كاي فونج» Cai Fong). وقد منحه إمبراطور الصين لقب «وانج» تقديراً لأعماله. وقد عرف طغرل بلقبيه الصيني والتركي: «وانج خان».

وكان الكرايت يحاربون أيضاً قبائل النايمان، وهم من الأتراك الذين يغلب عليهم الطابع المغولي، وسيأتي ذكرهم.

وفي عهد جنكيزخان كان «أونك خان» ملكاً علىٰ قبائل الكرايت. وفي بادئ الأمر كانت تربطها صداقة ومودة؛ لما كان بين «يسوكاي» والد جنكيزخان وملك الكرايت من الصداقة. ولكن الأمر تبدَّل، وقامت الحرب بين الصديقين، فقضىٰ جنكيزخان علىٰ صديقه القديم.

ومنهم قبائل مركيت Markit، ويطلق عليهم أيضاً اسم مكريت. وهم يسكنون شمال قبائل الكرايت المتقدم ذكرهم، علىٰ مجرىٰ نهر سلنجا وجنوب بحيرة بايكال، ويعدّون أنفسهم من جنس المغول، ولكنهم ـ كما هو معتاد في هذه القبائل البدوية ـ حاربوا الكرايت وملكهم أونك خان، كما حاربوا جنكيزخان، وقد قضىٰ عليهم جنكيزخان بقسوته المعروفة.

ومنهم: قبائل أويرات Oirat أو: أويراد Oyirad، وهم من أصل مغولي، ولكن لغتهم تفترق قليلاً عن القبائل الأخرىٰ المغولية. وقد كانوا يقيمون في المنطقة الواقعة بين نهر (أونن) وبحيرة (بايكال)، وكان عددهم كبيراً، ولما جاء جنكيزخان قدَّموا له الخضوع والطاعة بعد تمنع، ثم صاروا من جنده وأتباعه، وتزوج جنكيزخان منهم.

وممن ينسب إلىٰ المغول قبائل النايمان: وهم قبائل تركية، غلب عليهم الطابع المغولي، ويقطنون الحوض الأعلىٰ لنهر (أرخن)، ومنحدرات جبال ألتاي، ويدينون بالمسيحية مثل قبائل كرايت. وكان يطلق علىٰ ملكهم لقب «كوشلوك خان» أي: الملك العظيم القوي. وفي زمن جنكيزخان كان لهم ملك يدعىٰ «تايانك خان»، وقد قضىٰ عليه جنكيزخان بعد حرب طاحنة.

وهناك قبائل تركية بحتة ولكنها تمت إلى المغول بصلة المصاهرة والتحالف في كثير من الأحيان، والحرب والمخاصمة في أحيان أخرىٰ.

يقول المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهَمَذاني في كتابه «جامع التواريخ» الذي كتبه باللغة الفارسية[1]: «مع أن الأتراك والمغول وشُعَبَهم يتشابهون،

(١) نقلاً عن د. فؤاد عبد المعطي الصياد: «المغول في التاريخ»، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، (١ : ٢٠)، الذي يَعتبر كتاب رشيد الدين أهم مصدر في تاريخ المغول.

ولغتهم في الأصل واحدة، فإن المغول صنفٌ من الأتراك، وبينهم تفاوت كثير واختلاف سنشرحه في مواضعه إن شاء الله تعالىٰ».

ومن هؤلاء الأتراك المتصلين بالمغول القبائل التالية:

(١) **الأتراك القراخطائيون**: وقد كوّنوا دولة كبيرة قبيل ظهور دولة جنكيزخان. وكانت دولتهم تقع ما بين مملكة الخوارزميين في الغرب ومساكن المغول في الشرق. وهم من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين، وهم خليط من المغول والتانجوت والعنصر التركي، وقد حكموا شمال الصين ومنشوريا من سنة ٣٠٤ إلىٰ سنة ٥١٩هـ/٩١٦-١١٢٥م. وقد انهارت دولتهم في الصين، ولكنها بقيت في التركستان الشرقية، وتغلبوا علىٰ القراخانيين الذين دخلوا الإسلام في القرن الرابع الهجري، حيث أسلم ملكهم ستوق بغراخان سنة ٣٢٣هـ/٩٤٣م، وأسلمت معه مئتا ألف خيمة (أكثر من مليون). ثم تغلّب هؤلاء القراخطائيون على السلطان السلجوقي سنجر، واضطر أن يدفع لهم الإتاوة (الجزية) ليبقوا في مناطقهم، وتبعته في ذلك الدولة الخوارزمية حتىٰ جاء علاء الدين محمد خوارزمشاه فرفض دفع الإتاوة، فحاربوه وحاربهم وانتصر عليهم... وكان هؤلاء القراخطائيون يمثلون حاجزاً بين القبائل المغولية الهمجية وبين الدول الإسلامية في التركستان، فلما انهار هذا السد جاء طوفان المغول وخاصة على يد جنكيزخان كما سيأتي شرحه.

وعندما تغلب جنكيزخان علىٰ قبائل النايمان لجأ رئيس قبائلهم كوجوك خان إلىٰ القراخطائيين، وتزوج ابنة ملكهم، فلما مات الملك أعلن نفسه خاقاناً وحارب جنكيزخان، فكانت نهاية دولة القراخطائيين.

(٢) **الأتراك الأديغوريون**: وكانوا يسكنون شمال شرق تركستان الحالية. وهم قبائل متناحرة، ولكنهم اتفقوا أخيراً علىٰ إقامة ملك لهم يجمعهم ضد أعدائهم (أيدي قوت، أي: رئيس للدولة). وكانت لهم كتابة، وهي التي اتخذها جنكيزخان أبجدية لغته المغولية التي لم تكن تكتب. وكانوا يدينون بأديان شتىٰ هي: الشامانية، والمانوية، والبوذية، والمسيحية، وقد دخلت المسيحية إليهم قبل الإسلام بعدة قرون. ولما ظهر جنكيزخان صاروا من أتباعه وقادة جنده، ولعبوا دوراً مهماً في دولة جنكيزخان وأولاده.

(٣) **قبائل القرغيز**: يسكنون أعالي نهر ينيسي، واتخذ رئيسهم لقب خاقان في القرن الثامن الميلادي. . وتمتد أراضيهم لتشمل جمهورية قرغيزيا الحالية إلى تركستان الشرقية التي تحتلها الصين حالياً، وتسميها سينكيانغ (المستعمرة الجديدة). ولا يزال القرغيز يمثلون الأكثرية في التركستان الشرقية.

وقد أسلمت عشرة آلاف خيمة علىٰ يد القراخانيين الأتراك سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م، ولكن بقيت كثير من قبائل القرغيز علىٰ دينها الوثني (الشاماني) حتىٰ أسلمت في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين علىٰ يد الدعاة إلىٰ الله من العلماء والصوفية.

وقد استطاع القرغيز أن يستولوا علىٰ أراضي الأديغور في منغوليا سنة ٨٤٠م، ولكنّ الخطا (القراخطائيين) طردوهم بعد ذلك من منغوليا. ولما ظهر جنكيزخان خضعوا لحكمه سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، وصاروا من جنده.

(٤) **قبائل القرلوق**: وتقع أراضيهم جنوب مملكة الأديغور في الحوض الأسفل لنهر تاريم. ويختلفون عن جميع الأقوام السالفة في سحناتهم

وأشكالهم؛ فهم صباح الوجوه، أقرب إلىٰ البياض، وأطول من القبائل المغولية والتركية الأخرىٰ.

وقد كانوا أول من أسلم من قبائل الأتراك الشرقية، وعُرفوا بعد ذلك بالتركمان.

(٥) **الأتراك القراخانيون** (الدولة القراخانية، الدولة الخاقانية): وهؤلاء من الأتراك المعروفين باسم التغزغز لدىٰ المؤرخين المسلمين. وقد دخلوا في الإسلام منذ القرن الرابع الهجري عندما أسلم ملكهم ستوق بغراخان، وأسلمت معه مئتا ألف خيمة كما تقدم، وذلك سنة ٣٢٣هـ/ ٩٤٣م.

ويبدو أن القراخانيين قد شكّلوا دولة قوية لفترة من الزمان. وكان معهم القرلوق وغيرهم.. وقد استشهد خان كاشغر ـ وهو من القراخانيين ـ سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م أثناء جهاده في نشر الإسلام في المناطق الواقعة شرق كاشغر. وفي عام ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م استطاع القراخانيون أن يكسبوا إلىٰ صف الإسلام أكثر من عشرة آلاف خيمة من القرغيز، ونشروا الإسلام علىٰ جانبي جبال تيان شيان، وأظهروا خضوعهم للخليفة العباسي، واتخذ ملكهم ايلك خان لقب ناصر الحق.

وسرعان ما تحولت أبجديتهم اليغورية وثقافتهم الصينية إلىٰ الحرف العربي والطابع الإسلامي الصرف.

وقد قامت الحروب بينهم وبين دولة القراخطائيين، وكانت الغلبة للقراخطائيين الكفار. ولما ظهر جنكيزخان أخضع جميع هذه المناطق لحكمه. وكان القراخطاي يستبدّون بالمسلمين من القراخانيين، فلما ظهر جنكيزخان فرحوا بمقدمه، واعتبروه محرراً لهم، فعاملهم معاملةً حسنة.

هل عرف المغول الإسلام قبل ظهور جنكيزخان؟

يبدو لأول وهلة أن الإسلام لم يدخل إلىٰ المغول إلاّ بعد أن دخل أحد أحفاد جنكيزخان في الإسلام وهو بَرْكة بن جوجي بن جنكيزخان (وسيأتي عنه الحديث مفصلاً).

ولكننا نعرف أن مؤسس الطريقة الياسوية العالم الفاضل المجاهد الداعية إلىٰ الله الشاعر الصوفي أحمد اليسوي، هو مغولي الأصل[١]. وقد ولد هذا الشيخ في مدينة يسيي في منطقة تشيمكنت (تشيمقند)، وهي في جمهورية قازاقستان. وكانت وفاة هذا الشيخ العلامة الصوفي المجاهد سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م (أي قبل ظهور جنكيزخان بستين عاماً تقريباً). وقد أسلم علىٰ يدي هذا الشيخ مئات الآلاف من التركستان (القبائل البدوية المعروفة لدىٰ المؤرخين المسلمين باسم التغزغز)، كما أسلم علىٰ يديه الآلاف من قبائل المغول، وله مزار وضريح في مدينة تركستان (مدينة سرتاق سابقاً) في قازاقستان، وهو أكبر وليٍّ لديهم، وطريقته جاهدت الروس الغزاة لمدة قرنين من الزمان. ونحن نعرف أن المسيحية والبوذية والمانوية ـ بالإضافة إلىٰ الشامانية (عبادة الأسلاف والأوثان) ـ كانت منتشرةً لدىٰ كثير من قبائل الأتراك والمغول. وكما أسلفنا فإن المسيحية انتشرت بين قبائل الكرايت عندما تنصّر ملكهم سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م، كما أن النصرانية دخلت إلىٰ قبائل النايمان وقبائل المركيت.

---

(١) أخبرني مترجم محاضرتي القازاقي التي ألقيت في ألماآنا في قازاقستان في (المؤتمر العالمي لآسيا الوسطىٰ بين الماضي والحاضر في ٨ يوليه ٢٠٠٦م) أن أصول أحمد اليسوي عربية، بينما يذكر بارتولد وغيره بأنه مغولي الأصل.

وبطبيعة الحال لم تكن المسيحية هي الغالبة علىٰ هؤلاء الأقوام، بل كانت الديانة الشامانية هي الغالبة، وهي الديانة التي كان ينتمي إليها جنكيزخان، ولكن الأديان الأخرىٰ مثل البوذية والمانوية والمسيحية كانت موجودة.

وكذلك ظهر الإسلام في هذه القبائل، وإن لم يكن مسيطراً إلّا علىٰ عدد محدود، منهم قبائل القراخانيين الذين أسلموا بإسلام ملكهم، وكوّنوا دولةً إسلامية، كما أسلم عدد من القرغيز (عشرة آلاف خيمة) كما أسلفنا.

ورغم ذلك فإن الشامانية هي الدين السائد في عهد جنكيزخان لدىٰ هذه القبائل جميعاً.



الفصل الرابع

دولة جنكيزخان (٥٤٩-٦٢٥هـ/ ١١٥٥-١٢٢٧م)

بداية ظهور جنكيزخان:

ولد تموجين (وهو اسم جنكيزخان) في منغوليا ٥٤٩هـ/ ١١٥٥م علىٰ الضفة اليمنىٰ لنهر الأونون في منطقة «دولون بولداق»، وكان أبوه «يسوكاي بهادر» رئيساً لقبيلة قيات المغولية، واستطاع أن يخضع القبائل المغولية المجاورة لقبيلته. وقد أنجبت زوجته «أولون فوجين» أربعة أبناء، هم:

١ ـ تموجين: الذي عُرف فيما بعد بجنكيزخان عندما بلغ الحادية والخمسين، والذي أسس إمبراطورية دموية ضخمة لم يعرف التاريخ لها نظيراً في اتساعها ودمويتها.

٢ ـ جوجي قسار: واشتهر بالقوة البدنية الخارقة، وكان أحد قواد جيش أخيه جنكيزخان الذين يعتمد عليهم.

٣ ـ قاجيون: وقد نال منزلة كبيرة لدىٰ أبناء جنكيزخان، وكانوا يستشيرونه في الأمور الهامة.

٤ ـ تمواتجكن: الذي اشتهر أيضاً باسم «أوتجي نويان»، وكان ميّالاً إلىٰ العمارة وبناء القصور.

وكان لجنكيزخان إخوة كثيرون من أمهات مختلفات، منهم: «بلكوتي نويان» الذي كان ملازماً لجنكيزخان في سلمه وحربه.

ولمّا كان تموجين هو الابن الأكبر لهذه الأسرة فقد قرر أن تبقىٰ الأسرة بقطعانها في موطنها حيث المراعي إلىٰ جوار النهرين، واضطر للدخول في حروب عدة مع قبائل التايجوت التي كانت تناصبه العداء، والتي أَسَرَته أكثر من مرة، ولكنه كان يفلح في تخليص نفسه من الأسر والهرب منها.

وكان تموجين في الثالثة عشرة من عمره عند وفاة والده. وقد أدىٰ انفضاض رجال قبيلته عنه لاستصغارهم له إلىٰ أن يفقد مركز والده، كما فقد بعد ذلك قطعان ماشيته وخيوله التي استولى عليها الأعداء.

وأتقن الصيد والرماية والكرَّ والفرّ، وصار سريع الحركة، وشديد المكر، وبدأ في التغلب على الصعاب التي واجهته. وعندما بلغ سن السابعة عشرة استطاع بفضل ذكائه وشجاعته وحنكته أن يجتذب إليه عدداً من شخصيات قبيلته، وأن يخضع المناوئين لهم. وصمَّم بعد ذلك علىٰ إخضاع القبائل المجاورة، فبدأ بقبيلته التايجوت التي لقي من زعيمها الهوان والعذاب، فانتصر عليها. ثم عمل علىٰ إخضاع جميع القبائل المجاورة حتى سيطر علىٰ منطقةٍ شاسعةٍ شمالَ صحراء جوبي.

قبيلة كرايت المسيحية وتموجين:

كانت قبيلة كرايت علىٰ علاقة ممتازة مع يسوكاي بهادر والد تموجين، وكان رئيس هذه القبيلة القوية أونك خان يعطف علىٰ تموجين بعد وفاة والده باعتباره صديقاً لوالده. ولذا عندما بدأت شوكة تموجين تقوىٰ أرسل إمبراطور الصين إلىٰ أونك خان أن يقضي علىٰ تموجين قبل أن يسيطر علىٰ بقية المناطق ويستطير شرّه، ولكن أونك خان رفض ذلك؛ بسبب صداقته لوالد تموجين، ولِمَا رأىٰ من شجاعة هذا الشاب (تموجين) ونباهته. ولكن أبناء

أونك خان وأقاربه كانوا يحذّرونه باستمرار من هذا الشاب الطموح، حتىٰ صار يخشاه ويعمل علىٰ الخلاص منه، وقرر أن يهاجمه في وقت السحر، غير أن غلامين من أتباع أونك خان عرفا الخطة فأبلغا تموجين بذلك، واستطاع تموجين أن يفرَّ بأهله وأتباعه في الوقت المناسب. ولكن مجموعة أونك طاردته، وعندما التقىٰ الفريقان دارت بينهما حرب طاحنة أسفرت عن انتصار تموجين انتصاراً كاسحاً، وغنم غنائم كثيرة، وذلك سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م.

ورفع تموجين قدر الغلامين اللذَين صارا من خاصته، وأعطاهما من الغنائم شيئاً كثيراً. وأدت هذه المعركة إلى خضوع القبائل الأخرىٰ له، مثل قبائل الأويرات والقنقورات، فخصَّهم بالإنعام والرعاية.

تموجين وقبيلة النايمان:

شعر رئيس قبائل النايمان «تايانك خان» بالخطر بعد أن انتصر تموجين علىٰ قبائل كرايت، فأرسل إلى رئيس قبيلة الأنكوت أن ينضم إليه لمهاجمة تموجين، ولكن هذا الأخير كان علىٰ علاقة حسنة مع تموجين فأرسل إليه يخبره بما يدبّره رئيس النايمان، وكان من الطبيعي أن تدور رحىٰ معركة فاصلة بين تموجين وتايانك خان رئيس النايمان، انتهت بانتصار تموجين نصراً مؤزراً سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، وأدت إلىٰ قتل خصمه وأن يتزوج تموجين زوجة عدوه.

واستطاع تموجين أن يؤلب القبائل: الواحدة علىٰ الأخرىٰ، ويتحالف مع القوي ضد الضعيف، حتىٰ استطاع أن يخضع جميع قبائل المغول لسيطرته. وفي تلك السنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م سموه (جنكيزخان)؛ أي: إمبراطور البشر. وتعتبر هذه السنة بدء دولة جنكيزخان.

وفي فترة وجيزة دخل الأويغوريون في طاعته، وهم أكثر الأقوام التركية تمدناً، ولهم كتابة، فاستعار جنكيزخان حروفهم لكتابة قانونه (الياسا)، وحثَّ أبناءَه وأمراء بيته على تعلم الكتابة.

وكانت عاصمة الأويغور: مدينة (بيش باليغ)، كما أن من مدنهم تورقان وبرقول وألماليغ. وقد أطلق المؤرِّخون المسلمون عليهم «التغزغز». وكان الأويغور خاضعين للقراخطائيين، ولكن رئيس الأويغور عندما علم بانتصارات جنكيزخان أعلن الثورة علىٰ القراخطائيين، وقتل شحنتهم (المجموعة العسكرية الصغيرة التي كانت تدير الأمور من قبل القراخطائيين)، وأرسل إلىٰ جنكيزخان يعلمه بولائه له، وسار إليه سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م، وقدَّم له الهدايا، فرحَّب به جنكيزخان وأكرم وفادته. ومنذ ذلك الحين صار الأويغور من أتباع جنكيزخان ومناصريه وقادة جيوشه.

سيطرة جنكيزخان علىٰ مناطق الصين الشمالية (مملكة بكين):

استعد جنكيزخان لحرب طويلة الأمد مع الإمبراطورية الصينية الشمالية (مملكة بكين)، واشتبك معهم لأول مرة سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م، وتابع حملاته.

وفي سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م هجم بقواتٍ ضخمة حقق فيها انتصارات هامة، ولكنه توقف عند مرتفعات شانتونج بسبب شدة المقاومة الصينية، وعرض الصلح علىٰ إمبراطور الصين سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م، فوافق عليه الإمبراطور «واي دانج» أول الأمر، ولكنه خاف من سيطرة قوات جنكيزخان علىٰ كثير من أراضيه، فنقل عاصمته من بكين إلىٰ مدينة «كاي فونج» في الجنوب، وأدّىٰ ذلك إلىٰ سقوط بكين بيد جنكيزخان سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وغنم غنائم ضخمة.

وأحدث انتصار جنكيزخان على الصين دوياً هائلاً بما في ذلك الدول المجاورة، بل بلغ الخبر إلىٰ الخليفة العباسي الذي كاتب جنكيزخان يهنئه ويحثه علىٰ القضاء علىٰ الدولة الخوارزمية المسلمة التي كانت تحارب الخليفة!

جنكيزخان والدولة الخوارزمية:

وكان السلطان علاء الدين خوارزمشاه (ملك الدولة الخوارزمية) يدفع الجزية لملك القراخطائيين كما كان يفعل أسلافه، وكان هؤلاء يحُولون بينه وبين قبائل التتار والمغول الهمجية، ولكن علاء الدين محمد خوارزمشاه استغل فرصة ثورة رئيس قبيلة النايمان الجديد كوجلك خان علىٰ ملك القراخطائيين كورخان، واتفق معه علىٰ إزالة دولة القراخطائيين. وبالفعل نجحا في ذلك التدبير، ولكن كوجلك خان بدأ يضطهد ليس فقط القراخطائيين بل اضطهد المسلمين في دولته الجديدة، وحاول أن يجبر المسلمين علىٰ الارتداد عن دينهم. فلما فشل في ذلك فرض عليهم أن يلبسوا أزياء القراخطائيين، ومنعهم من أداء شعائرهم الدينية علانية، وبدأ يناظر علماءهم في شؤون الدين، وناظره الإمام علاء الدين محمد الختني، وبيَّن له زيف مذهبه ودينه (البوذي)، فما كان من كوجلك خان إلاَّ أن أمر بصلبه علىٰ باب إحدىٰ المدارس في ختن.

ولمَّا فرغ جنكيزخان من قتال أعدائه في الصين أرسل جيشاً كبيراً بقيادة «جبه نويان» لإخضاع كوجلك خان، وقد سار هذا الجيش إلىٰ كشغر (كاشغر)، فاستولىٰ عليها بسهولة، وفرَّ كوجلك خان من وجهه. وقام الجيش المغولي بإعادة الحرية الدينية للسكان، فتنفَّس المسلمون الصعداء، واعتبروه محرّراً لهم. وقضىٰ جنكيزخان علىٰ طائفة النايمان، وقتل ملكهم «كوجلك خان»، وذلك سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م.

وبهذا الانتصار تمت سيطرة المغول علىٰ جميع القبائل التركية التي كانت تخضع للقراخطائيين، وصاروا يجاورون الدولة الخوارزمية مباشرة.

وكان جنكيزخان يسمع عن قوة الدولة الخوارزمية، فأراد أن يعرف مدىٰ قوتها، وبدأ بإرسال الوفود والتجار ليعرف عن كثب أحوالها ومدىٰ قوتها، وعرض في أول الأمر إقامة علاقات تجارية وديّة بين المملكتين.

وقد أدىٰ العداء الشديد بين الخليفة العباسي الناصر لدين الله وعلاء الدين محمد خوارزمشاه إلىٰ أن يقوم الخليفة بمراسلة جنكيزخان يحثه على غزو علاء الدين خوارزمشاه.

يقول ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» (٩ : ٣٦١) «وكان سبب ما ينسبه العجم إليه (أي الخليفة العباسي) صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرىٰ التي يصغر عندها كل ذنب عظيم». وقد أيّده في ذلك المؤرِّخ المصري المقريزي الذي جاء بعده فقال في كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» (١ : ٢١٨): «وفي خلافته (أي الناصر) خرَّب التتر بلاد المشرق حتىٰ وصلوا إلىٰ همذان، وكان هو السبب في ذلك؛ فإنه كتب إليهم بالعبور إلىٰ البلاد خوفاً من السلطان علاء الدين محمد ابن خوارزمشاه لما همَّ بالاستيلاء علىٰ بغداد، وأن يجعلها دار ملكه كما كانت السلجوقية».

وكان جنكيزخان لا يتعجّل الأمور بل يعد لكل أمر عُدّته.

وكانت أول مواجهة بين قوات جنكيزخان والسلطان علاء الدين محمد سنةَ ٦١٢هـ/ ١٢١٦م، عندما كان كلاهما يحارب المركيت، ولكن جيوش المغول كانت أسرع في القضاء علىٰ المركيت، فصمم علاء الدين علىٰ الالتحام

بالمغول أنفسهم، رغم أن قائد المغول أعلن له أنه لم يأت إلّا للقضاء علىٰ المركيت. وأراد علاء الدين أن يقضي علىٰ هذه القوة الصاعدة قبل أن يستفحل أمرها، ودخل معها في معركة، وكانت المعركة سجالاً؛ حيث حقق جلال الدين منكبرتي (ابن السلطان) قائد ميمنة المسلمين نصراً على ميسرة العدو، ولكن ميمنة المغول انتصرت على ميسرة المسلمين. وفي ظلام الليل انسحب المغول وتركوا النيران مشتعلة ليخدعوا المسلمين. وقد تمكن في قلب السلطان الرعب منهم فكان يقول: «لم يُرَ كرجالهم إقداماً وثباتاً علىٰ مضض الحرب، وخبرةً بقوانين الطعن والضرب» كما ينقله الصياد في كتابه «المغول في التاريخ» ص٩٦ عن النسوي في كتابه «سيرة جلال الدين منكبرتي».

ولما علم السلطان محمد خوارزمشاه بانتصار المغول علىٰ إمبراطورية الصين، أراد أن يتأكد من الخبر، فأرسل السيد الأجل بهاءَ الدين الرازي سفارة إلىٰ الصين، فراعه ما حلَّ بالصينيين من المذابح، وما حلَّ بالبلاد من الخراب الذي أوقعه جنكيزخان بهم. وعاد هذا إلىٰ السلطان يخبره بهول ما رأىٰ، ويخبره بمقابلة جنكيزخان له، وأنّه يريد إقامة علاقة حسنة مع السلطان علاء الدين محمد شاه. ثم أرسل جنكيزخان رسالة إلىٰ علاء الدين يحملها محمود يلواج الخوارزمي وعلي خواجه ويوسف كنكا الأتراري (كلهم مسلمون)، ومعهم الهدايا الثمينة للسلطان، وذلك في ربيع سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، ويقول له فيها: «ليس يخفىٰ عليّ عظيم شأنك، وما بلغ من سلطانك، وقد علمتُ بسطة ملكك، ونفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرىٰ مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعزّ أولادي، وغير خافٍ عليك أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العسكر، ومعادن

الفضّة، وإنّ فيها لغُنيةً عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمّت المنافع وشملت الفوائد»[١].

وقد غضب السلطان من أن جنكيزخان جعله في منزلة الولد، وهذا يحمل نوعاً من التبعية، واستدعىٰ السلطان علاء الدين الخوارزمي ليلاً محمود يلواج الخوارزمي، ومنَّاه بشتىٰ الوعود، ومنحه جوهرة ثمينة، وطلب منه أن يكون عيناً للخوارزميين علىٰ جنكيزخان. وسأله السلطان: أَصَدَقَني فيما يقول جنكيزخان أنه مَلَكَ الصينَ واستولىٰ علىٰ مدينة طغماج؟ أصادقٌ فيما يقول أم كاذب؟ فقال: بل صادق.. وأكَّد له أن هذا الأمر لا يخفىٰ، وعن قريب سيتحقق السلطان من ذلك بنفسه. فقال السلطان: أنت تعرف ممالكي وبسطتها وعساكري وكثرتها، فمن هذا اللعين حتىٰ يخاطبني بالولد؟! ما مقدار ما معه من العساكر؟! فلما رأىٰ محمود يلواج غضب السلطان طمأنه، وقال له: إنّ عسكر جنكيزخان ليس إلاّ كفارس في خيل أودخان في جنح ليل بالنسبة لقوات السلطان. ثم إن السلطان كظم غيظه، ورد الوفد بالرد الحسن والهدايا، وأبرم معه اتفاقية تجارية. وأرسل جنكيزخان وفداً من التجار المسلمين ومعهم عددٌ مماثل من القواد المغول؛ وبذلك يتبين دهاء جنكيزخان الذي أراد بهذا الأسلوب أن يقوي التجارة بين البلدين وأن يعرف مكامن القوة والضعف لدىٰ الخوارزميين. فلما وصل الوفد إلىٰ مدينة «أترار» كان حاكمها ينال خان (ابن خال السلطان) قد شكَّ في هذا الوفد، وأنهم جواسيس وليسوا تجاراً، ويقال إنه أرسل إلىٰ السلطان بذلك، وأنه يريد قتلهم، فوافقه السلطان على ذلك. ولمَّا بلغ الخبر إلىٰ

(١) «سيرة جلال الدين منكبرتي» للنسوي ص٨٣، ٨٤ كما ينقلها عنه د. الصياد في كتابه «المغول في التاريخ» ص٩٩.

جنكيزخان استشاط غضباً، ولكنه مَلَكَ نفسه، وأرسل إلىٰ السلطان يطلب منه أن يسلّم حاكم أترار لجنكيزخان، ليلاقي جزاءه على فعلته الشنعاء.

وقد ذكر النسوي في كتابه «سيرة جلال الدين منكبرتي» ص٨٧، نصَّ رسالة جنكيزخان إلىٰ السلطان علاء الدين، وفيها يقول: «إنك قد أعطيت خطَّك ويدك بالأمان للتجار ألَّا تتعرض لأحدٍ منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان المسلمين أقبح، فإن كنت تزعم أنّ الذي ارتكبه ينال خان (حاكم أترار) كان من غير أمرٍ صدر منك، فسلِّم ينال خان لأجازيه علىٰ ما فعل، حقناً للدماء وتسكيناً للدهماء، وإلَّا فاءْذَن بحربٍ ترخص فيها غوالي الأرواح».

ورفض السلطان ذلك، بل فعل ما هو أشد إذ أمر بقتل رسل جنكيزخان، وأصبحت الحرب بين الطرفين أمراً لا مفرَّ منه.

يقول الجويني في «تاريخ جهانكشاه» (١ : ٦١) كما ينقله عنه الصياد في كتابه «المغول في التاريخ» ص١٠٥ : «إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار، قد أجرت أنهاراً من دماء المسلمين، وكان القصاصُ لكلِّ شعرةٍ: مئاتِ الآلاف من الرؤوس».

ولا شك أن ما فعله السلطان علاء الدين قد عجَّل بهذه الحرب التي كان لا بد أن تقع بين الفريقين، وخاصةً أن جنكيزخان قد أصبح أكبر قوة في الشرق، ويرىٰ أن عليه أن يمتدَّ غرباً في أملاك المسلمين. وللأسف فإن السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه لم يُعدّ للأمر عُدَّته، فقد كان في عداء دائم مع خليفة المسلمين والحكام المسلمين في المناطق المجاورة، وأثار العلماء والشعب ضده عندما أعلن خلع الخليفة العباسي وتعيين خليفةٍ علوي بدلاً عنه، وأعلن المذهب الشيعي الجعفري بينما كل شعبه تقريباً من السنة.

وكان وضعه حرجاً مع والدته تركان خاتون التي كانت تتدخل في شؤون الحكم، بل وصل الأمر بينها وبينه إلىٰ تدبير المؤامرات ضد بعضهم البعض. كما أن قيام السلطان بقتل الشيخ مجد الدين البغدادي الذي عارض عزل الخليفة العباسي، أدّىٰ إلىٰ أن يقف العلماء والعامة ضده. وكان الشيخ مجد الدين البغدادي من كبار العلماء والصوفية ومن أبرز تلاميذ الإمام نجم الدين كبرىٰ مؤسس الطريقة الكبروية المشهورة، وأحد الأعلام الذين قاوموا المغول حتىٰ استشهدوا في بخارىٰ.

وكان أكبر أبناء السلطان جلال الدين منكبرتي وأكثرهم شجاعةً ودهاءً قد وقع في مشاكل مع إخوته الذين كانت تؤيدهم والدة السلطان تركان خاتون وقبيلتها العسكرية من القازاق. وكان التناحر في البيت الحاكم، وسوء الإدارة، ومعاداة العلماء والصوفية، وعزل الخليفة العباسي وتعيين خليفة علوي، واتخاذ المذهب الشيعي بدلاً من مذاهب السنة التي كان عليها أهل تلك البلاد، من الأسباب الهامة للهزيمة النفسية قبل الهزيمة العسكرية الماحقة التي أنزلها جنكيزخان بهذا السلطان الذي كان يعاني من انقسام رجال دولته، وتدخل أمه في شؤون الدولة. وازداد الأمر سوءاً بعزل جلال الدين منكبرتي من ولاية العهد (أمه تركمانية) وتولية أخيه الأصغر (أمه قازاقية) تحت تأثير والدة السلطان تركان خاتون.

وكان جنكيزخان يظن السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ملكاً قوياً؛ فاستعد بجيش كثيف عرمرم، وسار بنفسه مع جميع أبنائه وقادة جيوشه مع قبائل المغول والقرلوق والأويغور. كما استعدَّ بجمع المعلومات عن طبيعة الأرض وقوات العدو، وقصد مدينة أترار التي صمدت في وجه قوات المغول لمدة خمسة أشهر كاملة. وقد اعتصم ينال خان حاكم المدينة بقلعتها الحصينة،

وأبدىٰ ضروباً من الشجاعة، واستمر يدافع عن نفسه ومدينته حتىٰ بعد أن نَفِدَ منه السلاح، وقتل جميع رجاله، فكان يرميهم بالحجارة والطوب الذي كانت تجمعه له نساؤه. فلما وقع في أيدي المغول أمر جنكيزخان بأن تصهر الفضة وتسكب في عينيه وأذنيه حتىٰ مات. واستبيحت المدينة فلم يتركوا منها أحداً، ونهبت دورها وكل ما فيها.

وتحرك الجيش الثاني الذي يقوده جوجي، واحتل (سقناق)، ثم (جند) التي فرَّ منها جنود خوارزمشاه تاركين الأهالي يواجهون مصيرهم.

وتحرك الجيش الثالث نحو (بناكث)، فحاصروها ثلاثة أيام ثم استسلمت دون قتال، ومنها إلىٰ خوجند (خجنده) التي واجهت المغول، ثم تحرك قائدها مع ألفٍ من جنوده إلىٰ جزيرة بالقرب من خجنده علىٰ نهر سيحون، وظل يحارب المغول بشجاعة فائقة... واستطاع رغم الحصار المضروب أن يُنزل بالمغول عدة ضربات، كما استطاع أن يصل إلىٰ خوارزم ومنها إلىٰ خراسان. واسم هذا القائد الشجاع تيمورمك.

ووصل الجيش المغولي الرابع إلىٰ بخارىٰ، فحاصرها حتىٰ اضطر أهلها إلىٰ التسليم في ٤ ذي الحجة ٦١٦هـ/١٢١٩م. ورغم هذا بقيت القلعة تقاوم مدة اثني عشر يوماً حتىٰ قتل جميع من فيها، وهم أربعمئة من المقاتلين الأشدَّاء الذين أنزلوا بالمغول عدة ضربات موجعة مما أثار غضب جنكيزخان، فأمر بحرق المدينة بكاملها بعد أن أمر جنوده بنهبها. وقد وصف أحد الناجين من سكّان بخارىٰ الموقفَ بقوله: «لقد أتوا فخرّبوا وأحرقوا، وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا».

وسار جنكيزخان بجيوشه مع الأسرىٰ الذي كان يستخدمهم دروعاً لقواته لغزو سمرقند، وهجم علىٰ المدينة بجيوشه، ولكن الحاميةَ ثبتت.

وتظاهرت فرقة من الجيش المغولي بالانسحاب فتبعها الجنود الخوارزمية، والتحموا بالمغول الذين كمنوا لهم وتمكنوا من القضاء عليهم. وانهارت المقاومة وخاصةً عندما توقف طغاي خان [أخو (تركان خاتون) أم السلطان وصاحبة النفوذ الضخم] عن القتال، بل وانضم إلىٰ قوات جنكيزخان. وبذلك استسلمت المدينة في العاشر من المحرَّم سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م. وقام المغول رغم ذلك بنهب كل ما في المدينة، ثم أضرموا فيها النار، وقتلوا أكثر سكانها ما عدا الصُّنّاع المهرة الذين أرسلوهم إلىٰ منغوليا.

وأمر جنكيزخان بتتبع علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي فرَّ من مدينة إلىٰ أخرىٰ متجهاً غرباً صوب خراسان، ووقعت خزائن هذا المَلِك في أيدي المغول واحدةً بعد أخرىٰ. . وهم يجدّون في طلبه من بلد إلىٰ آخر؛ مما أدىٰ إلىٰ فزع الأهالي وسقوط العديد من المدن الهامة في أيديهم دون قتال، حتىٰ فرَّ إلىٰ مازندران (في شمال إيران) الواقعة علىٰ ساحل بحر قزوين. ولمَّا وصل المغول إليها هرب في سفينة إلىٰ إحدىٰ الجزر الصغيرة، وقد أصيب السلطان بعلة ذات الجنب (الالتهاب الرئوي)، وقبل وفاته أعلن خلع ولده قطب الدين أزلاغ من ولاية العهد، وولىٰ ابنه الأكبر البطل الشجاع المحارب جلال الدين منكبرتي. ثم مات السلطان بعد أن بلغه سقوط القلعة في مازندران بيد المغول، وأن نساءَه قد أُسرن، وأولاده الصغار قتلوا جميعاً، وكانت وفاته في شوال ٦١٧هـ/ ١٢٢١م.

وسقطت المملكة الشاسعة بيد قوات جنكيزخان مدينةً بعد أخرىٰ، كما سقطت الجرجانية (كركانج) عاصمة إقليم خوارزم بعد قتال عنيف قامت به قوات تركان خاتون أم السلطان، وأُسرت هذه المرأة القوية العنيدة التي سبَّبت النكبة لبلدها وابنها بسبب تدخلها في الحكم ومحاربتها لابنها، وعاشت في الأسر ذليلةً مهانةً حتىٰ ماتت سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م.

وقد دَمرت قوات جنكيزخان الضخمة مدينةَ خوارزم (الجرجانية)، وأزالت السد القائم علىٰ نهر جيحون لتغرق المدينة عندما تمنَّعت وطال أمد مقاومتها. فغرقت المدينة وذُعر الناس والجنود، فتلقفتهم سيوف جنكيزخان ونباله، فقتل مئات الآلاف، وأسر أكثر من مئة ألف من أصحاب الحِرَف والصناعات الذين أُرسلوا إلىٰ الأقاليم المغولية. وكان نصيب كل جندي من جنود المغول ٢٤ من النساء والأطفال الذين بيعوا فيما بعد في الأسواق.

نجم الدين الكبرىٰ:

وكان من بين شهداء المدينة العالم الصوفي الشهير «نجم الدِين كبرىٰ». وينقل الجويني عن الشاعر الفارسي عبد الرحمٰن جامي الذي كان من تلاميذ الشيخ، قصةَ استشهاده فيقول: «لمَّا قرب المغول من مدينة خوارزم جمع الشيخ تلاميذه ـ وكانوا يزيدون علىٰ الستين ـ وقال لهم: قوموا وغادروا هذه الديار بسرعة إلىٰ مواطنكم ودياركم؛ فستتقد في المشرق نارٌ يندلع لهيبها حتىٰ يلفح المغرب. فقال أحد أتباعه: ولم لا تدعو ـ الله فربما ينكشف البلاء عن ديار المسلمين؟ فقال الشيخ: إن هذا البلاء مقدّر لا ينفع فيه الدعاء ولا الضراعة. وطلب منه أتباعه أن يسافر معهم فأبىٰ؛ لأنه يريد أن يموتَ شهيداً، فبقيَ معه من بقي، وخرج يحارب المغول وفي يده حربة، وملأ جعبته بالحجارة، وأخذ يقذف المغول بالحجارة ويحارب بالحربة حتىٰ استشهدَ وقد قبض علىٰ ضفيرة واحدٍ من المغول فلم يستطيعوا تخليصها من قبضته بعد موته، واضطروا إلىٰ قطعها».

جلال الدين منكبرتي:

وقد قام جلال الدين منكبرتي بأعمال بطولية خارقة في مقاومة المغول، وحقق بعض الانتصارات، حتىٰ أُعجبَ به جنكيزخان نفسُه؛ لأنه أبدىٰ

ضروباً من البطولة والتضحية. واستطاع جلال الدين أن يفرّ إلىٰ شمال الهند (باكستان حالياً)، وعبر نهر السند بجنوده سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م؛ ليقاتل المغول مرة أخرىٰ في إيران. واضطر جلال الدين لمحاربة الحكام المحليين من المسلمين الذين استغلّوا تفكك الدولة الخوارزمية وانهزامها، فاستقلَّ كل حاكم بمنطقته. وحارب جلال الدين المغول، وهؤلاء الحكام، وأخاه غياثَ الدين الذي حرص علىٰ إثبات الملك (الضائع) لنفسه. ورغم ذلك استطاع جلال الدين أن يوحِّد هذه الأقاليم في الظروف الصعبة العسيرة تحت قيادته، وحارب الإسماعيلية عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م وانتصر عليهم. كما حارب الأشرف موسىٰ بن الملك العادل أيوب صاحب (خِلاط) وانتصر عليه سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م.

لهذا كله كان علىٰ جلال الدين أن يواجه أعداء مختلفين، بل إن بعضهم كالإسماعيلية تعاونوا مع المغول ضده. وبعد معارك طاحنة انهزم جلال الدين، واحتمىٰ وحيداً بجبال كردستان (شمال العراق وجنوب تركيا حالياً)، وفي إحدىٰ قرىٰ ميافارقين قتله أحد القرويين الأكراد ليستولي علىٰ متاعه وفرسه. وذلك في منتصف شوال ٦٢٨هـ (١٥ أغسطس ١٢٣١م).

وكثرت الأساطير حول نهايته بسبب ما أبداه جلال الدين منكبرتي من بطولات في مواجهة المغول.

واستولىٰ الرعب علىٰ الناس والبلاد كافة من المغول بعد قتل جلال الدين، فلم يجد المغول مقاومةً حقيقية، فاكتسحوا ديار بكر، وأرزن الروم (أرضروم)، وميافارقين، وماردين، ونصيبين، وسنجار (تقع كل هذه المناطق شمال العراق وجنوب تركيا). واكتسح الجيش المغولي الثاني مدينة بدليس وما حولها. أما الجيش الثالث فقد اكتسح أذربيجان، واستسلمت تبريز عاصمتها دون

قتال سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م. ودخل المغول إقليم إربيل (كردستان العراق) وحاصروا العاصمة، ولكنهم وافقوا علىٰ الانسحاب لقاء مبلغ كبير من المال بدلاً من مواجهة جيش قادم من بغداد.

وفي سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م وصلت قوات المغول إلىٰ سامرّا، وأعلن الخليفة آنذاك ـ فقط ـ الجهاد، واستطاع قائد الجيش مجاهد الدين الدواتدار أن يهزم المغول بالقرب من تكريت، وأن يفكَّ أسر عدد كبير من المسلمين. ولكن المغول عاودوا الكرة في السنة التالية ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م: بقوات كثيفة، وهزموا المسلمين في خانقين وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

ومنها اتَّجه المغول شمالاً نحو جورجيا (جرجستان)، وسقطت عاصمتها (تفليس) بأيديهم، كما سقطت بأيديهم أرمينيه المجاورة. واستسلمت معظم هذه المناطق دون قتال، فسلمت من الدمار الشامل الذي ينزله المغول بكل مَن يقاومهم.

واستغل المغول النزاع الدائر بين سلاجقة الروم (السلاجقة الذين يحكمون منطقة تركيا الحديثة) وبين حكّام مصر والشام (آخر أيام الأيوبيين وبداية المماليك). واحتل المغول مدينة أرزن الروم (أرضروم) ـ وهي من تركيا اليوم ـ بعد قتال مرير، وانسحب غياث الدين كيخسرو (سلطان سلاجقة الروم)، ثم عاد لمحاربتهم، ودارت بينه وبينهم معركة عنيفة من كوسه طاغ (الجبل الأقرع من نواحي أرزنجان) سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م، وأسفرت عن انتصار المغول. . . ووقع الأناضول بعدها في قبضة المغول، واضطر السلطان غياث الدين كيخسرو إلىٰ إعلان خضوعه للمغول وأن يصبح تابعاً لهم. وقد أمر جنكيزخان أن يخطب الخطباء علىٰ لسانه بهذه الخطبة: «اعلموا أنكم قد اقترفتم كثيراً من الآثام ووزرُها يقع علىٰ أمرائكم. واعلموا أني سوط الله الذي بعثني لأنزل بكم عقابه، وسخطه وعذابه». وقد كان فعلاً دماراً وعذاباً وعقاباً وسخطةً علىٰ المسلمين.

المغول في أوروبا:

بعد أن أتم المغول فتح الصين وبلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران وبلاد الأناضول وشمال العراق اتجهوا إلى أوروبا، وبدؤوا بجورجيا وأرمينية، واستولوا علىٰ كامل الأراضي الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم، واحتلوا روسيا ودخلوا موسكو، ثم وصلوا أوكرانيا واستولوا على عاصمتها كييف سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م.

وانقسم جيش المغول بعد ذلك إلى قسمين: قسم زحف علىٰ بولندا، وقسم توجَّه إلىٰ المَجَر، واستولىٰ المغول علىٰ مدن بولندا حتىٰ ـ وصلوا برلين، كما تغلّب الجيش الثاني علىٰ المَجَر، واحتلوا عاصمتهم بست Best (بودابست)، وتقدموا إلىٰ فينا وإلىٰ سواحل بحر الأدرياتيك.

وبعد أن كانت التحالفات بين المغول والبابا ضد المسلمين علىٰ قدم وساق أدت هذه الهجمات إلى حرب بين البابا والمغول.

وفي أثناء هذه المعارك في أوروبا وردت الأنباء بوفاة أوكداي (القآن = الخان الأعظم الذي تولىٰ العرش بعد وفاة أبيه جنكيزخان)، وذلك سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م. واضطر قائد الحملة باتو بن جوجي، وقائد جيشه سبوتاي أن يرجعا إلىٰ منغوليا لحضور القوريلتاي (مجلس الشورىٰ الأعلىٰ) للاشتراك في انتخاب الخان الأعظم الجديد. وبذلك سلمت غرب أوروبا من خطر ماحق كان يتهددها.

وكانت أوروبا (الشرقية) وروسيا وحوض نهر الفولجا وشمال التركستان كلها تحت حكم الأورد الذهبي. وهو أورد (ألوس = قبيلة) جوجي بن جنكيزخان ومن والاه من قبائل المغول والترك.

الفصل الخامس
أولاد جنكيزخان

كان لجنكيزخان أولاد كثيرون، إلاّ أنّ زوجته الأولىٰ وأم أبنائه الأربعة «يوسنجن بيكي» كانت هي المفضَّلة، وكان أبناؤها في المقدمة، وقد درَّبهم علىٰ الحروب، وقيادة الجيوش في حياته، وولاهم كثيراً من المناصب الهامة، وعرف ميزات كل واحد منهم.

وعاد جنكيزخان إلىٰ بلاده منغوليا عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م بعد حروب دامية متصلة. وبعد ٢٥ سنة من بداية حكمه مرض، وقسَّم مملكته الواسعة في أولاده، وفي عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م مات بعد أن بلغ الثالثة والسبعين، وبعد أن دوَّخَ العالم، وأقام إمبراطوريةً ضخمةً شملت الصين شرقاً حتىٰ أبواب ڤينا غرباً، ووصلت إلىٰ سيبيريا شمالاً، والهند جنوباً. . . ولعلها أضخم إمبراطورية من ناحية المساحة عرفها التاريخ.

وكان أولاد جنكيزخان الأربعة هم:

(١) جوجي: وقد تُوفي، أو قتل قبل وفاة أبيه.

(٢) جغتاي: وهو أشبه الناس بأبيه من حيث الصرامة والدموية، وأشدّهم حفاظاً علىٰ قوانين (الياسا) التي وضعها أبوه.

(٣) أوكداي (أوكتاي): وهو أكثر الأبناء سماحةً وقدرةً علىٰ إبقاء تماسك البيت المالك، كما أنه أقلهم دمويةً (بعد جوجي)، وأكثرهم قدرةً علىٰ بناء الدولة وتأمين الرعايا من البطش.

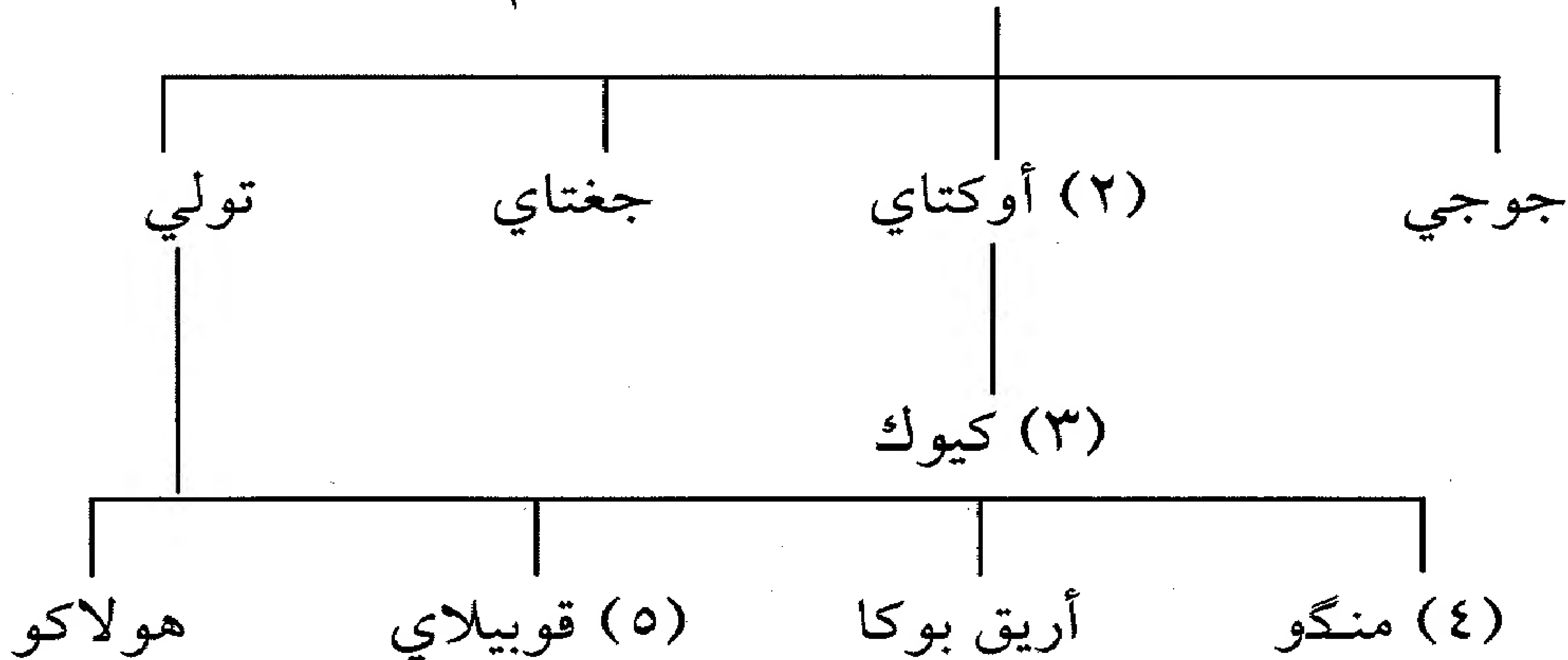
(٤) تولي: وهو أصغر الأبناء الأربعة، وأكثرهم حنكةً عسكرية، وقدرةً علىٰ وضع الخطط والقتال، وهو فاتح الصين.

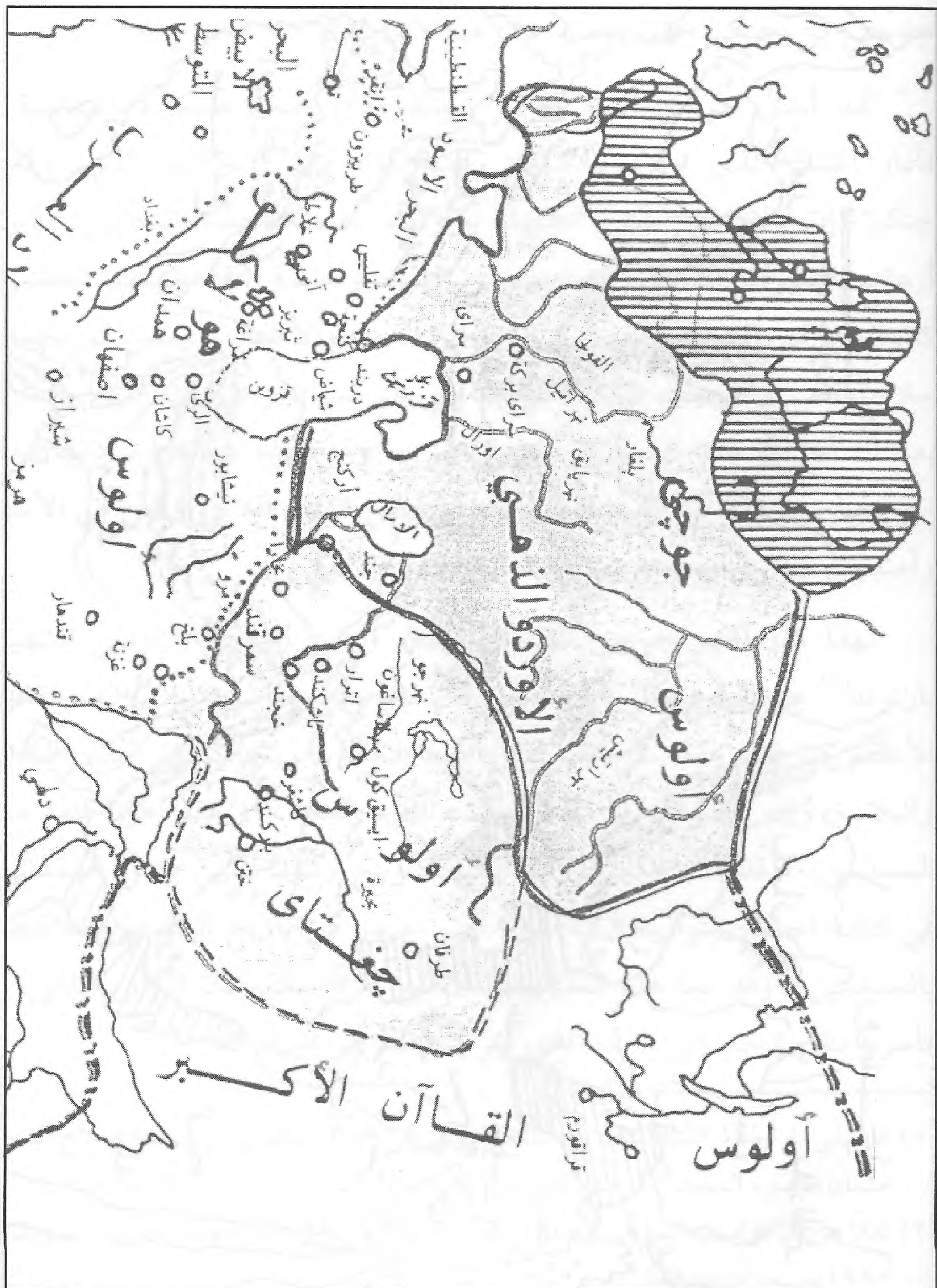
وكان قانون (الياسا) الذي وضعه جنكيزخان يجعل الابن الأصغر في عاصمة والده (قره قوم)، وله الأراضي المغولية الأصلية. وتكون أبعدُ الأراضي للابن الأكبر جوجي ونسله.. لهذا كانت لجوجي الأراضي الممتدة إلىٰ روسيا، والڤولجا، وأوروبا الشرقية، وشمال التركستان. وكانت لجغتاي الابن الثاني الأراضي التي تليها (إيران وخراسان وجزء من التركستان). وجعل لأوكداي التركستان الغربية والشرقية، كما أوصىٰ أن يكون أوكداي هو الذي يتولىٰ عرش المغول وهو القاآن الأكبر الذي يطيعه جميع إخوته.

وفيما يلي رسمٌ بأسماء خانات المغول من أبناء جنكيزخان وأحفاده. ثم تليه خريطة توضح مملكة كل واحد من هؤلاء الأربعة الأبناء. وقد تبع كلَّ واحد من هؤلاء الأبناء عددٌ من الأسرة الحاكمة وقادة الجيش وجنوده، ويُدعىٰ ذلك الألوس أو الأورد (القبيلة). ثم يلي ذلك خريطة توضح اتساع الإمبراطورية المغولية الممتدة لتشمل الصين شرقاً إلىٰ أبواب ڤينا غرباً، ومن سيبريا شمالاً إلىٰ أفغانستان والهند جنوباً.

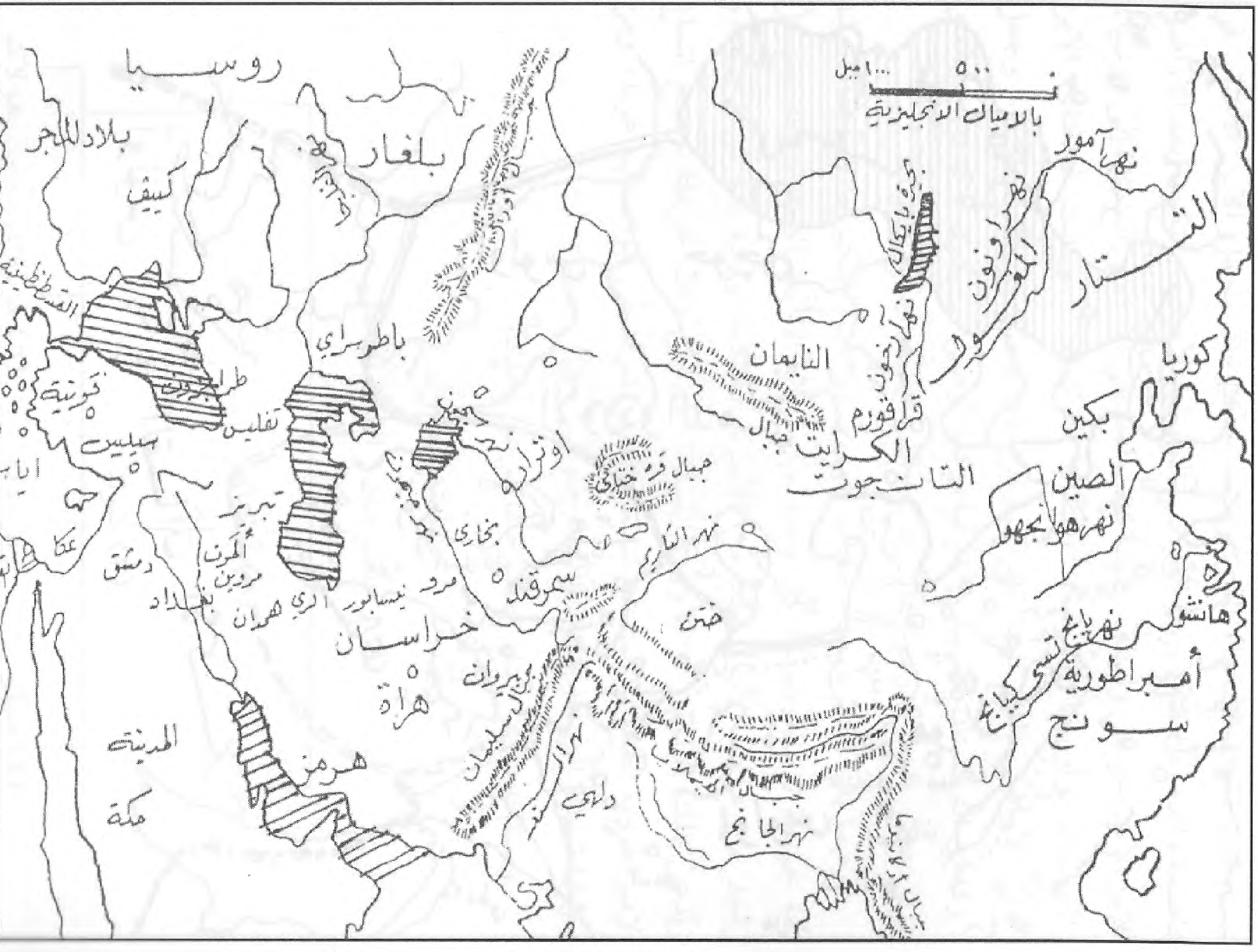
وسنتحدث عن أبناء جنكيزخان ثم عن أحفاده.

خانات المغول





إمبراطورية المغول في القرن الثالث عشر



إمبراطورية المغول في أقصى مداها

جوجي بن جنكيزخان (وفاته ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م):

لقد أبدىٰ جوجي الابن الأكبر لجنكيزخان حنكةً عسكريةً وسياسية، فأدار القسم الذي تولاه بحكمة، ولكنه هاله مدىٰ الخراب الذي أوقعه جنكيزخان بالأراضي التي احتلها، وأرَّقت مضجعه دماء الملايين الذين أزهقتهم سيوف المغول ورماحهم ونبالهم، وخاصةً أن غالبيتهم العظمىٰ كانوا من غير المحاربين، ومن الشيوخ والنساء والأطفال، وممن لم يحمل سلاحاً قط. وأصبحت المدن العظيمة في التركستان وخراسان خراباً ودماراً بعد أن أحرقها جند المغول، ونهبوا خيراتها وما فيها، وذبحوا سكانها عدا مَنْ يحتاجون إليه من الصناع المهرة، أو بعض النساء اللاتي وقعن في الأسر وأصبحن جواري يستمتع بهن جند المغول وقادتهم.

لهذا كِله أظهر جوجي انتقاداً لوالده. وينقل المؤرّخ الروسي الشهير بارتولد[١] عن الجوزجاني أن جوجي قال لخاصته وحاشيته: إن والده القاآن الأعظم قد فقد عقله كي يقتل كل هذا الخَلْق، ويخرِّب كل هذه المدن والبلاد، وإنّ الصواب أن يُقتل والده أثناء الصيد، ويَعقد هو حلفاً مع المسلمين. وقد أكّد هذه الرواية أيضاً المؤرخ رشيد الدين فضل الهَمَذاني في كتابه «جامع التواريخ»[٢]، وهو أهم مصدر في تاريخ المغول وعلاقتهم بالمسلمين. وقد نما هذا الخبر إلىٰ جغتاي ابن جنكيزخان (الابن الثاني)، فأسرع بنقل الخبر إلى والده الذي أمر بسمِّ جوجي سرّاً.

---

(١) فاسيلي بارتولد: «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي»، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨١م، ص٦٤٠.

(٢) نقلاً عن د. فؤاد عبد المعطي الصياد: «المغول في التاريخ»، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.

وتتحدَّث الروايات أنّ جوجي كان فيما بين الثلاثين والأربعين حين سمَّه والده، ولم يلبث جنكيزخان إلاَّ بضعة أشهر بعد وفاة جوجي. ومات جوجي في شهر أغسطس سنة ١٢٢٧م/ ٦٢٥هـ.

وبعد وفاة جنكيزخان تولى كل واحدٍ من الأبناء ما كان أعطاه له أبوه من الأراضي والجيوش، وتولىٰ باتو بن جوجي المناطق التي خُصِّصت لأبيه جوجي.

ولم يجتمع القوريلتاي (مجلس الشورىٰ الأعلىٰ المكوَّن من أبناء جنكيزخان والأمراء وكبار القادة) إلاَّ بعد عامين من وفاة جنكيزخان، أي في عام ١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ. وقد تولىٰ (تولي) أصغر الأبناء في تلك الفترة منصب القآن الأعظم بصورة مؤقتة، كما كان هو حاكماً للمنطقة التي أعطاه إياها والده وهي منغوليا ومنشوريا وما حولها.

وعندما تمّ الاجتماع (القوريلتاي) في ١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ تمَّ اختيار (أوكداي) قاآناً أعظمَ للمغول بناءً علىٰ وصية جنكيزخان.

القآن أوكداي (٦٢٦-٦٣٩هـ/ ١٢٢٩-١٢٤٢م):

أوكداي (أوكتاي): هو الابن الثالث لجنكيزخان، وأكثر الأبناء سماحةً وقدرةً علىٰ إبقاء تماسك أمراء البيت المالك بسبب دماثة أخلاقه (وهو أمر نِسْبِي بطبيعة الحال)، كما أنه أقل الأبناء الباقين (بعد وفاة جوجي) دمويةً، وأكثرهم قدرة علىٰ بناء الدولة واستقرارها. وكان له ميل إلىٰ البناء حيث شيّد أبنية فخمة بمعاونة الصناع المهرة من الصين والتركستان المسلمين. وقد شارك بصورة أقل من إخوته في الحملات العسكرية، وأمضىٰ معظم أيام حكمه في العاصمة قرا قوم (قره قوم) ونواحيها. ومع ذلك فقد سارت

الحملات العسكرية في خطها المرسوم لها منذ عهد جنكيزخان، ونجحت في الاستيلاء على إمبراطورية الصين الشمالية (كانت إمبراطورية الصين مقسمةً إلىٰ قسمين شمالي وجنوبي)، كما نجحت في الاستيلاء علىٰ آسيا الغربية وأوروبا، ووقفت الجيوش عند أسوار ڤينا، واضطرت للعودة بسبب وفاة القاآن أوكداي.

ويقول بارتولد[١] نقلاً عن كتاب «تاريخ المغول السري» [ترجمه إلىٰ الروسية كفاروف] أن أوكداي قال: «إنَّ مليكنا جنكيزخان قد أقام، أسس بيتنا بجهدٍ جبار، أمّا مهمتنا الآن فهي تحقيق السلام والرفاهية لأفراد الشعب والرعايا، لا إثقال كاهلهم بما لا يطيقون من الأعباء». ويقول بارتولد: ومع ذلك فإن الاغتيال السري للنبلاء الذين كانوا يعارضونه ويُوصَفُون بالخطورة لم يتوقف، وإنما جرىٰ بدرجة أقل بكثير مما كان عليه الحال في عهد أبيه. ولم يكن يُفْرِطُ في الانتقام والبطش إلاَّ فيما ندر، وذلك عندما انتقم من «توقولقو» أحد قادة جيشه وقبيلته عندما أبدى العصيان، ودبَّر ثورة ضد القاآن.

ويقول بارتولد[٢]: «إن المؤرخين المسلمين يثنون ثناءً عاطراً علىٰ أوكداي لحسن معاملته للمسلمين. وبعض القصص التي رواها المؤرِّخ الجويني عن أوكداي إنما تهدف إلى التأكيد بأن القاآن أوكداي كان يفضّل الإسلام علىٰ بقية الأديان، وأنه كان يحمي المسلمين من كيد أعدائهم ومنافسيهم من الصينيين والأويغور والنصارىٰ والبوذيين. وكذلك فعل المؤرِّخ الجوزجاني الذي أثنىٰ ثناءً بالغاً وعاطراً علىٰ أوكداي. وقد أورد دوسون أن

---

(١) بارتولد: «تركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي» ص٦٤٩-٦٥٢.
(٢) بارتولد: المصدر السابق، ص٦٦٠.

أحد الأويغور حاول أن يفرض الوثنية علىٰ أحد المسلمين قسراً، فلمّا بلغ الأمر إلى القاآن أوكداي أمر أن يُضرب الأويغوري مئة عصا في السوق، وأن تُسلَّم زوجته ومنزله للمسلم»[١].

وكان جغتاي الذي بسط نفوذه علىٰ الشطر الأكبر من المناطق الإسلامية في آسيا الوسطىٰ (حسب تقسيمات جنكيزخان للأراضي المفتوحة لأولاده) يكره المسلمين كرهاً شديداً، ويحقد عليهم؛ لأنهم يخرجون على تعاليم الياسا[٢] (وهي التعاليم التي أوجدها جنكيزخان وفرضها علىٰ أبنائه، وكان جغتاي أشد أبناء جنكيزخان تمسكاً بها ومعرفةً بتعاليمها).

وكانت تعاليم إلياسا تحرّم ذبح الماشية، ويقوم أحدهم ببَقْر بطنها وشقِّه، ثم يغرس القلب بيده حتىٰ تموت، ثم تؤكل، كما كانت تعاليم الياسا تحرِّم الوضوء من المياه في الأنهار والبحيرات. وكان المسلمون حريصين علىٰ أن لا يأكلوا من هذه الميتة، فكانوا يقومون سراً بذبح الماشية مما يؤدي إلىٰ غضب جغتاي عند معرفته بذلك (له عيون كثيرة من الشامانيين والبوذيين وغيرهم) وإنزال العقوبات الشديدة بمن يفعل ذلك. كما أن عقوبة من يتوضأ من الأنهار أو مصادر المياه شديدة جداً تصل إلىٰ الإعدام.

وكان أوكداي ـ كما يقول بارتولد ـ يحتال في كثير من الأحيان لإنقاذ المسلمين من براثن أخيه جغتاي.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) يطلق المسلمون في هذه المناطق لقب چيتا (الغادرون) للمغول الذي لا يحبون الإسلام ويعادونه، كما يطلقون لقب قره ناص (الحزام الأسود) علىٰ المغول الذين يحبون المسلمين ويعاملونهم معاملةً حسنةً سواء دخلوا في الإسلام أم لم يدخلوا فيه.

ويروي الجوزجاني في كتابه «طبقات ناصري»[١] أن أوكتاي كان ملكاً كريماً نبيل الخلق طيب المعاملة للمسلمين، علىٰ حين كان أخوه جغتاي لا يكف عن إيذاء المسلمين وإلحاق الضرر بهم. . ويحرِّض كبار الشخصيات المغولية لكي يشوا بالمسلمين عند أوكتاي. . وذات يوم جاء راهب بوذي إلىٰ القاآن أوكتاي وقال له: إنه رأىٰ جنكيزخان في المنام، وإنه يأمر ابنه أوكتاي بضرورة العمل علىٰ إهلاك المسلمين في جميع الأقطار؛ لأن المسلمين أصبحوا كثرةً، وسوف يكون علىٰ أيديهم القضاء علىٰ دولة المغول.

فلما سمع أوكتاي كلام الراهب البوذي أدرك بفراسته أنه كذبٌ وافتراء، فقال للراهب: أتعرف المغولية أم التركية أم الاثنين معاً؟ فأجاب الراهب: بل أعرف التركية فقط. عندئذ قال أوكتاي: إن جنكيزخان كان لا يعرف سوىٰ المغولية، وأنت لا تعرف سوىٰ التركية، فبأية لغةٍ إذن بلغك هذا الأمر؟ فاضطرب الراهب اضطراباً شديداً. فقال أوكتاي: إنني لن أستبيح دمك احتراماً لأخي جغتاي (لأنه عرف أنه هو الذي دسَّه)، فعدْ من حيث أتيت، وقل لجغتاي وزمرته: كفّوا عن إيذاء المسلمين لأنهم أصدقاؤنا، وقد استمدت مملكتنا منهم القوة، وبعونهم أصبح العالَم مسخَّراً لنا وطوعَ أمرنا.

وكان أوكتاي يستخدم الأَكْفاء من الصينيين والمسلمين في إدارة مملكته الواسعة وتنظيم شؤونها؛ فهو يعرف أن المغول هم أهل حرب وقتال من الطراز الأول، ولكن لا معرفةَ لهم بشؤون الإدارة وحكم الدول.

---

(١) الجوزجاني: «طبقات ناصري» (بالفارسية) ص٣٨٢، كما ينقله عنه د. فؤاد عبد المعطي الصياد: «المغول في التاريخ»، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠، (١ : ١٩٢).

وكان وزيره الصيني (يه لو جئو تسأي) قد أقنع القاآن أوكداي أن يجعل مع كل أمير من أمراء البيت المغولي علىٰ الأراضي المفتوحة رجلاً أو رجالاً من رجال الدولة والخراج، وألَّا يسمح للأمراء بجمع الضرائب رأساً من السكان. فكان التنماجي (عامل الخراج) مسؤولاً مباشرةً أمام القاآن، وهو الذي ينظّم الشؤون المالية للإمارة الموكولة إليه، ومنع الأمراء المغول من التدخّل في عملهم، وبالتالي أمكن تنظيم الدولة ودخلها وخرجها (مصروفاتها) بدقّة؛ لأن هؤلاء العمّال علىٰ الخراج (التنماجية) لهم خبرة بذلك، وهم في الغالب من أهل تلك البلاد المفتوحة.

محمود يلواج الخوارزمي:

وقد وَلّىٰ القاآن أوكداي أمر بلاد ما وراء النهر والتركستان إلىٰ وزيره المسلم محمود يلواج الخوارزمي الذي خدم في بلاط أبيه من قبل كسفير (لفظ يلواج يعني السفير). وضبط محمود يلواج جميع بلاد ما وراء النهر (التركستان)، وأعاد بناء المدن التي تمَّ تخريبها أثناء الغزو المغولي المدمّر. وعادت بخارىٰ وسمرقند وخوارزم إلىٰ سابق عهدها أو قريب منه، وانتشرت فيها المدارس العلمية كما كانت من قبل، وعمَّ الرخاء إلىٰ حدٍّ كبير، وساد الأمن، ونمت التجارة إلىٰ قريب مما كانت قبل الغزو المرعب.

وبما أن جغتاي هو الخان والحاكم لبلاد ما وراء النهر حسب وصية والده، وإن كان يخضع في نهاية الأمر للقاآن الأعظم، وهو أوكداي، فإنه لم يكن سعيداً بتعيين مسلمٍ وزيراً للخاقان، ومندوباً عنه في الأراضي التي تعتبر ضمن أراضيه هو.

وكان محمود يلواج الخوارزمي قد ضبط الإدارة والشؤون المالية، وشجَّع الزراعة والتجارة والصناعة، وزاد بذلك دخل الدولة، ولكن جغتاي

لم يعجبه ذلك فعزله دون وجه حق. فعتب القآن أوكداي عليه ذلك، فاعتذر عن فعلته، وقبل القآن اعتذاره، وولّىٰ أوكداي أمر الصين لمحمود يلواج وجعله وزيره فيها، ثم جعل ابنه مسعود بيك وزيراً علىٰ بلاد ما وراء النهر وخراسان والتركستان.

وقام محمود يلواج بدوره في الصين، وضبط أمور الدولة، ونشر العدل والأمان، وشجَّع التجارة والصناعة، وزاد بذلك دخل الدولة دون أن يكون في ذلك عنتٌ علىٰ الشعب. وعمل محمود يلواج علىٰ نشر الإسلام، فأسلمت طائفة تُدعىٰ (التونكان) منذ ذلك العهد، وانتشرت فيها الجوامع والمدارس الإسلامية.

ويتحدَّث بارتولد[١] عن محمود يلواج بكل توقير، وينقل عن المؤرِّخين بعض ما مدحوه به:

يقول ابن الفُوَطي في معجمه «مجمع الآداب» (القسم الثالث من الجزء الرابع ص٢٩٨ من طبعة مصطفىٰ جواد): «فخر الدين أبو القاسم محمود بن محمد، يعرف بيلواج الخوارزمي، كان من أعيان دولة جنكيزخان، والعظماء والوزراء في هذا الزمان، وعليه مدار الملك في المشرق، وإليه تدبير ممالك تركستان، وبلاد الخطا، وما وراء النهر وخوارزم. وكان مع هذا الحكم والدهاء كاتباً سديداً، يكتب بالمغولية والأويغورية والتركية والفارسية، ويتكلّم بالخطائية والهندية والعربية. وكان غايةً في الفهم والذكاء والمعرفة، وبتدبيره انتظم للمغول ملكهم».

ويذكره ابن العبري (ص٤٧٨) بقوله: «الصاحب المعظَّم يلواج». ويقول جمال قرشي (ملحقات الصراح Teksty str 139) تحت عنوان: (ذكر معارف

---

(١) بارتولد: «التركستان، من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي» ص٦٥٤-٦٥٥.

الأمراء والوزراء، وذوي العوارف الكبراء): «منهم الصاحب الأقدم، والدستور الأعظم، فخر الدين، وغياث الإسلام والمسلمين، أعدل وزراء الخواقين، ضابط الممالك، حارس أهل الإسلام من المهالك، آصف العهد، محمود يلواج بن محمد الخوارزمي، صبَّ الله علىٰ تربته سجال رحمته. فُوِّضَ إليه الوزارة العامة من قبل جنكيزخان إلىٰ دور (أيام) منكوخان، فرتَّبَ الممالك ونظَّم أمور الدولة والدين من جيحون خراسان إلىٰ أقصىٰ ممالك الصين: قسَّم الممالك القاون الأعظم أوكتاي بن جنكيزخان بينه وبين ابنه (مسعود)، وأجلسه في ممالك خطاي وتنكت إلىٰ ديار يغر، فعمرت البلاد بيَدِه وأَيْده، وانتعشت البلاد بعدله وعهده،... توفي في شهر ربيع الأول سنة (٦٥٢هـ) بخان بالق، ودفن بها شهيداً غريباً، وإلىٰ رحمة الله ورضوانه قريباً، وأقام ـفيما بين ديار تنكت إلى شط جيحون خراسان لأمور الإمارة والوزارة بهاـ ابنَه الصاحب، الصدر الكبير المعظم، الأمير الخطير المفخم، سلطان وزراء العالم، مفخرة أمراء بني آدم، صاحب السيف والقَلَم، ناصب الطُّور والعَلَم، ناشر البرِّ والكَرَم، راقي رتبتي الملك والعِلْم، ساقي كأسَي البأس والحِلْم، سايق حليبي الحرب والسلم، ليثي الوثوب في الحروب، غيثي السيوب للنشوب، برهان الدنيا والدين مسعود بن محمود الخوارزمي الذي هو خلاصة النقد، وواسطة العقد،... وكانت أيامه كالليالي في إنامة الفتن، واستنامة الرمايا إلىٰ السبات والسكن، لاستخلاصهم عن العوارض والفتن.... فاعتلىٰ لواءُ العلم بنصره، وانجلىٰ ظلامُ الظلم في عصره. مات في شوال سنة ٦٨٨هـ، ودفن في مدرسته بها (أي في بخارى)».

ثم تولىٰ بعدَه ابنُه مسعود الثاني أبو بكر بن مسعود بن محمود يلواج سنة ٦٨٩هـ. ومات في شعبان سنة ٦٩٧هـ، وجلس بعده أخوه الأمير ستلمش وهو مسعود الثالث، ومات في سنة ٧٠٢هـ.

وجلس في دار الملك بكاشغر بإشارة الخان الأمير سيونج بن مسعود بن محمود يلواج الخوارزمي (وهو مسعود الرابع)، وذلك بعد وفاة أخيه سنة ٧٠٢هـ.

وكما يقول بارتولد فإن محمود يلواج الخوارزمي أعاد للبلاد الإسلامية التي تحطمت علىٰ أيدي المغول في التركستان وبلاد ما وراء النهر وخراسان، رونقها وسابق مجدها إلىٰ حد كبير.

ثورة تاربي[١]:

ومع ذلك فقد استطاع رجل كان يصنع الغرابيل من قرية تاراب، يدعى محمود التاربي أن يقوم بثورة ضد المغول في بخارىٰ وما حولها، علىٰ اعتبار أن المسلمين لا ينبغي أن يخضعوا لحكم هؤلاء المغول الكفرة، الذين كانوا يفرضون علىٰ المسلمين أكل الميتة (كان جغتاي كما أسلفنا يفرض على المسلمين أن يأكلوا الماشية بعد أن تقتل علىٰ طريقة قانون الياسا، ويمنعهم من الذبح الشرعي، كما كان يمنعهم من الوضوء في الأنهار ومصادر المياه). وحرَّك هذا الرجل الصوفي الجماهير، ودعاهم إلىٰ الجهاد، وقام ببعض الخوارق التي أذهلت العامة والخاصة مما جعل أتباعه يكثرون. وأيّد تاربي الشيخُ شمس الدين محبوبي، فاستولىٰ الشيخ محبوبي وتاربي علىٰ بخارىٰ وما حواليها. وعندما واجه تاربي ومحبوبي حشود المغول التي وجهها جغتاي، وقف الزعيمان بلا سلاح أو دروع تقيهما، واثقَيْن في قواهما الخارقة حتىٰ إن العدو نفسه اعتقد أن الذراع التي ستمتد إليهما ستذبل في مكانها. ولمَّا كرَّ الثوار علىٰ قوات المغول لاذت قوات

---

(١) بارتولد: المصدر السابق ص٦٦٤ وما بعدها.

المغول بالفرار. وقد هشَّم الفلاّحون بفؤوسهم رؤوس كل من استسلم لهم، حتىٰ بلغ عدد القتلىٰ من المغول عشرة آلاف جندي كان العالم يرتعب منهم. وبعد انتهاء المعركة بفوز الثوار بحثوا عن تاربي وصديقه الشيخ محبوبي فلم يجدوهما، ثم بعد لأيٍ تبين أنهما أصيبا بالسهام أثناء المعركة، وقتلا فيها. فلما علم المغول بذلك تقوّت معنوياتهم، وجاؤوا بجيشٍ كثيف لَجِب بعد أسبوع من انقشاع غبار المعركة الأولىٰ.

وفي هذه المرة لم يكن هناك محمود تاربي وشمس الدين محبوبي يحثَّان الناس على الجهاد، وسرعان ما انهارت معنويات الفلاحين الذين لم يكونوا أصلاً أهل قتال، فتقدَّمت قوات المغول، وسحقوا الثوار سحقاً.

وقرَّر جغتاي أن يبيد بخارىٰ ويحرقها ويدمرها تدميراً، كما فعل أول مرة في زمن والده، ولكن محمود يلواج أسرع إلىٰ القاآن يتشفَّعُ في أهل بخارىٰ وما حولها لينقذها من الدمار والهلاك الذي سينزله بها جغتاي، واستطاع محمود يلواج بما له من مكانة عند القاآن أن يستصدر منه عفواً عن أهل بخارىٰ، فنجت بذلك بخارىٰ وما حولها من دمار محقق.

وقام رجلٌ صيني مقرَّب إلىٰ جغتاي، وعالم بتاريخ غزوات جنكيزخان وحياته، ويعرف قوانين (الياسا) معرفة جيدة، قام هذا الرجل بتشجيع جغتاي علىٰ أن يطرد محمود يلواج من الوزارة ليحلّ هو محله، وبالفعل قام جغتاي بذلك. ولكن القاآن عتبَ عليه فعلته تلك، ونقل محمود يلواج ليتولىٰ شؤون الصين، كما عيّن مسعود بيك ابن محمود يلواج وزيراً علىٰ بلاد ما وراء النهر (التركستان) وخراسان. كما أن محمود يلواج استطاع أن يضغط علىٰ وزير جغتاي الصيني حتىٰ يثني علىٰ محمود يلواج عنده.

وهكذا استطاع محمود يلواج وابنه أن يحكما مناطق واسعة شملت الصين والتركستان الشرقية والتركستان الغربية (بلاد ما وراء النهر) إلىٰ خوارزم وأجزاء من خراسان.

جهود محمود يلواج وابنه مسعود في نشر الإسلام:

لم يكتف محمود يلواج وابنه مسعود بيك بإنقاذ المسلمين مما حلَّ بهم من دمار في عهد جنكيزخان، بل أعادا بناء الدولة، ونشرا الأمان، وضبطا أمور الإدارة، وحكما بالعدل في كل شؤون الدولة. ولم يكتفيا بذلك بل أعادا إلىٰ بخارىٰ وبلاد ما وراء النهر رونقها القديم، وأعادا بناء المساجد والمدارس الدينية المشهورة، وقرّبا العلماء والدعاة إلىٰ الله من الصوفية.

ويثني الجويني ثناءً عطراً علىٰ الأبنية التي شُيّدت علىٰ عهد مسعود بيك في بخارىٰ، ويخص بالذكر المدرسة الخانية التي بنيت علىٰ نفقة الملكة سور ققتنى بيكي (أرملة تولي). والمدرسة المسعودية التي بنيت علىٰ نفقة مسعود بيك. ويبدو أن كلا البنائين كان قريباً من الريكستان، وتزينان ميدان بخارىٰ، وبكل مدرسةٍ ألفُ طالب. ومما يلفت النظر بصورة خاصة في تصرف الملكة هو تبرعها بألف بالش (عملة ذهبية) لتشييد المدرسة، رغماً من أنها كانت مسيحية العقيدة، وكان المدّرِّس بالخانية والمتولي أمرها هو سيف الدين باخرزي العالم المشهور. ومسعود بيك هو الذي شيد أيضاً المدرسة المسعودية بكاشغر، والتي يحدثنا عنها صاحب الترجمة الفارسية لصحاح الجوهري، فيثني عليها ثناءً عاطراً.

ويتحدث الدكتور الصياد في كتابه «تاريخ المغول»[١] عن أرملة تولي الأميرة «سرقتني (سرقويني) بيكي» فيقول: إنها كانت أميرةً عاقلة وحصيفة.

---

(١) د. الصياد: «تاريخ المغول» ص٢٠٦، ٢٠٧.

وبعد وفاة زوجها الخان تولي (أصغر أبناء جنكيزخان وقد توفي في أثناء حكم أخيه أوكداي)، حازت علىٰ عطف وتقدير القاآن أوكداي الذي كان يستشيرها حتىٰ في شؤون الدولة وإعداد الجيوش. وقد عرض عليها أوكتاي أن يزوجها من ابنه كيوك، ولكنها اعتذرت بلباقة، وأكَّدت أن زواجها من كيوك شرفٌ لها، ولكنها تريد أن تتفرغ لتربية أبناء تولي الصغار؛ حتى تُنشِئهم علىٰ الرجولة والأخلاق الحميدة وهم في وفاق ومحبة، فقبل أوكتاي منها ذلك.

وقد قامت هذه الأميرة المسيحية ـ تحت تأثير محمود يلواج ـ ببناء مدارس إسلامية، وجعلت لها الأوقاف، وهو أمرٌ في منتهىٰ الغرابة، ولكنه يوضح مدىٰ تأثير محمود يلواج وابنه مسعود عليها. وقد توفيت هذه الأميرة الفاضلة سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م.

واستطاع محمود يلواج أن يتقرَّب أيضاً إلىٰ أرملة جوجي. وبما أن جوجي كان محبّاً للمسلمين فإن أرملته كانت كذلك. ولذا فإن أبناء جوجي: باتو وبركه خان كانا يعطفان علىٰ المسلمين. حتىٰ إن بركه خان تحوَّل فعلاً إلىٰ الإسلام، واستطاع بعد وفاة أخيه باتو أن يجعل الألوس (الأورد الذهبي وهو ألوس جوجي) يتحول تدريجياً إلىٰ الإسلام، وأن يقاتل ابن عمه هولاكو في سبيل نصرة الإسلام كما سيأتي عند الحديث عن بركه خان. ويقال إن بَرْكه خان تعلَّم القرآن في خجند (خجنده)، وأسلم رسمياً علىٰ يد العلامة الداعية إلىٰ الله سيف الدين باخرزي في بخارىٰ.

وهكذا نجد مثالاً رائعاً في شخصية محمود يلواج الخوارزمي وابنه مسعود في كيفية حماية المسلمين من بطش المغول، وإعادة إعمار البلاد بعد خرابها، وإقامة المدارس الإسلاميّة، بل ونشر الإسلام بين صفوف المغول أنفسهم، مستعينين في ذلك بالعلماء العاملين المجاهدين في نشر

الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وكان للمرأة المسلمة في هذه العملية دورٌ بارزٌ مشرِّف، فقد دخلت إلىٰ قصور الأميرات وأقنعتهن بمزايا الإسلام فتحوَّل مَن تحوَّل منهن إلىٰ أنوار الإسلام وهُداه، وبقي منهن من بقي علىٰ أديانهن (الشامانية والبوذية والمسيحية)، ولكن هؤلاء الداعيات استطعن علىٰ الأقل تحييدهن وإيجاد التعاطف مع المسلمين وقضاياهم، كما أوضحناه في قصة أرملة تولي الأميرة سورققتني بيكي النصرانية التي شيّدت المدارس الإسلامية، وعطفت علىٰ المسلمين.

إننا محتاجون في زمننا هذا النكِد إلىٰ رجال في إخلاص وحكمة محمود يلواج الخوارزمي وابن مسعود بيك في كيفية مواجهة الغازي المغولي الجديد المتمثل بقوة البطش الأمريكية ومِن ورائها عقول يهود ومكايد يهود.

والمعركة طويلة، ونصرُ الله آتٍ، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون.

وقد واجه محمود يلواج المكايد من رجال جغتاي بما فيهم وزير جغتاي قطب الدين حبش ومستشارة الملكة توراكينا (زوجة أوكداي) المدعوة فاطمة ووزيرها عبد الرحمٰن. وقد تآمر هؤلاء جميعاً على محمود يلواج بعد وفاة أوكداي، مما أدىٰ إلىٰ أن يلجأ محمود يلواج ومعه مساعده جينغاي الأويغوري إلىٰ كوتان ابن أوكداي. ولما طلبت أمه أن يُسلِّمهما إليها اعتذر لها، وكتب إليها: «إنّ بغاث الطير عندما تحتمي بالأشواك خوفاً من مخالب البازي تجد الأمان عند الأشواك. وهما قد استجارا بي، وليس من الهمة والمروءة والكرم أن أسلمهما إليكِ»[١].

---

(١) الجويني (١ : ١٩٧) كما ينقل عنه بارتولد في «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي» ص٦٦٠.

وقد وقعت فاطمة وعبد الرحمٰن التابعان لحبش عميد في مكايد آخرين، واتُّهِمَتْ فاطمةُ بأنها سحرت الأمير كوتان بن أكداي وقضت عليه، فتم إعدامهما، وارتفع شأن محمود يلواج مرة أخرىٰ.

قطب الدين حبش عميد(١): وهو أيضاً من المسلمين، ولكنه الصورة المغايرة لمحمود يلواج الخوارزمي وابنه مسعود. أصله من كرمينية قرب بخارىٰ، وقيل: بل من أترار علىٰ نهر سيحون، وهو رجل من التاجيك وقد التحق بخدمة المغول منذ أيام فتحهم لبلاد ما وراء النهر، وترقىٰ حتىٰ بلغ مرتبة الوزير لدىٰ جغتاي، وبلغ عنده مكانة كبيرة.. لكن لم تُعرف عن حبش عميد غيرة خاصة علىٰ الإسلام، ولم يدافع أبداً عن المسلمين حتىٰ إن العالم الداعية الصوفي سيف الدين باخرزي خاطبه بقوله في قصيدة بعثها إليه:

«بما أن رب العزة قد أوكل إليك في هذه الدولة أن تنصر الحق، فماذا سيكون عُذرك يوم الحشر إذا أنتَ لم تقم بذلك؟! وفي ملّتنا الإسلامية ـ نَصَرَها الباري إلىٰ يوم الدين ـ شروطُ الرئاسة ثلاثة هي: العلم والسن والإسلام، فإذا أراد شاب لا خبرةَ له أن يتولىٰ الرياسة، فإنه في نظر العقلاء لا يعيب المسنين أن يُحرَموا منها. وحيث يصبح الهدهد القوّاد حاكماً علىٰ الأمور (مَلِكاً)، فإنه لا عارَ علىٰ البازي في أيام دولته أن يكون بغير تاج. ومن الأفضل للعقلاء أن ينأوا بأنفسهم إذا ما تولىٰ السفهاء الرياسة، ذلك أن القصر عندما يصبح منبراً، فإنه من الخير البقاء بلا منبر».

وهو كلام صريح وشديد القسوة علىٰ هذا الوزير الذي جمع الأموال والثروة، ولم يهتم بأمور المسلمين ولا حاول إنقاذهم.

---

(١) بارتولد: المصدر السابق ص٦٦١-٦٦٣.

وقد كان المتصوفة خلال الغزو المغولي أكثر حمية من غيرهم في إذكاء روح المقاومة ودعوة الشعب إلىٰ جهاد عدوهم. وقد سقط اثنان من رؤسائهم في الدفاع عن كركانج (خوارزم) وبخارىٰ، وهما: نجم الدين الكبرىٰ، وركن الدين إمام زاده الذي يُعَدُّ سيفُ الدين باخرزي من مريدِيهما.

جغتاي ابن جنكيزخان (وفاته ٦٣٨هـ وقيل ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م):

هو الابن الثاني لجنكيزخان، وأكثرهم صرامةً ودمويةً، كما أنه أكثرهم معرفةً والتزاماً بقوانين (الياساً) التي وضعها والده، كما كان أكثرهم عداوةً للإسلام والمسلمين.

وفي عهده لم يظهر أحدٌ في بلاطه من المسلمين سوىٰ حبش عميد الذي كان يعتبر بمثابة الخائن من قِبَلِ جمهرة علماء الإسلام، والذي لم يهتم بحماية المسلمين أو ترقية شأنهم، بل اهتم بمصلحته الشخصية.

وكان معظم مستشاري جغتاي بن جنكيزخان من الصينيين البوذيين الذين كانوا يحقدون علىٰ المسلمين، وخاصةً أن أوكداي جعل محمود يلواج المسلم حاكماً علىٰ الصين من قِبَلِه، رغم أن محمود يلواج حكم بالعدل، ولم يكلّف الرعيّـة من جميع الأديان فوق طاقتهم، بل خفَّف عنهم الضرائبَ الباهظة، وجعلها دائماً في المستوىٰ المعتدل.

وعندما حدثت فتنة تاربي وثورتهم علىٰ المغول، أمر جغتاي بعد أن تغلّب علىٰ الثورة بإبادة أهل بخارىٰ وإحراق المدينة، ولولا أن محمود يلواج استطاع أن يستصدر أمراً من القاآن أوكداي، لكان علىٰ بخارى أن تعاني من الدمار والتخريب مرة أخرىٰ.

وكما أسلفنا فإن حبش عميد الذي وزر لجغتاي لم ينفع المسلمين في شيء.. ولم يُظهِر أحدٌ من أبناء جغتاي مودةً ومحبةً للإسلام إلا بعد مضي فترةٍ من الزمان.

وفي عهد جغتاي وتوليه الأمور في منطقة التركستان (ما بين النهرين سيحون وجيحون وحوضهما) لم يكن من الممكن لأي مسلم أن يذبح شاةً إلا سراً، وقد يتعرّض للمساءلة الخطيرة إذا تمت الوشاية به، كما لم يكن في قدرة أحدٍ من المسلمين أن يتوضأ من الأنهار أو مصادر المياه. وقد اضطر المسلمون في معظم الوقت الذي كانوا فيه تحت حكمه إلىٰ أكل ما يعتبرونه ميتةً (طريقة قتل الحيوانات حسب قانون الياسا).

وقد علا شأن رجل صيني في أواخر أيام جغتاي حتىٰ صار وزيره، رغم أنه كان قصير القامة، زري المظهر، إلا أنه كان ذكياً شجاعاً فصيحاً عالماً بتاريخ غزوات جنكيزخان وقانونه الياسا.

وقد مات القآن أوكداي في جمادىٰ الثانية سنة ٦٣٩هـ/ ديسمبر ١٢٤١ بسبب الإفراط في الشراب كما يقول الجويني، وينقله عنه بارتولد[١]. وكانت عادة الغول أن يدفن الخان في الأورد الخاص به؛ ولذا فقد نقل جثمان أوكداي إلىٰ ضفاف أعالي نهر أرتيش، ودفن بجبل بولدوق قسر الشاهق الذي تكلله الثلوج.

وبعد قليل من موت القآن أوكداي لحقت به الخاتون موكه، أحب زوجاته إليه. وقد اتفق جغتاي (أكبر الباقين من أبناء جنكيزخان) وبقية أمراء البيت المالك أن تتولىٰ تصريف الأمور الملكة توراكينه Toregene أم أولاد الخاقان الراحل، وذلك لحين اجتماع القوريلتاي وتعيين خان جديد.

---

(١) بارتولد: «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي» ص٦٧١.

ولم يعش جغتاي بعد أخيه القاآن أوكداي إلاّ بضعة أشهر، هذا ما يقوله الجويني، بينما يقول المؤرِّخ رشيد الدين إنه مات قبل أوكداي بسبعة أشهر، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٦٣٨هـ/ مايو ١٢٤٢م[١].

وكان أحب أولاد جغتاي إليه هو موتكن، وقد اختاره أبوه ليخلفه، ولكنه مات قبل أبيه في حصار باميان (في شمال أفغانستان)، فأعلن جغتاي ابناً آخر هو بلوشني خليفةً، ولكنه مات في الثالثة عشرة من عمره في حياة أبيه. عندئذٍ أعلن جغتاي حفيده قرا هولاكو بن موتكن ولياً لعهده. وبعد وفاة جغتاي قامت الملكة بيسولون (أرملة جغتاي) وكبار رجال الدولة بتولية الأمير الشاب عرش ألوس جغتاي.

وبعد وفاة أوكداي القاآن بدأت المؤامرات والإعدامات الوحشية للأمراء والقادة بسبب اختلافاتهم.

عرش المغول:

واضطربت أمور المغول بعد وفاة أوكداي، ولم يتم اختيار القاآن لعدم حدوث اجتماع القوريلتاي. وكانت أرملة أوكداي الملكة توراكينه (توراكينا) هي التي تدير الأمور حسب القانون المغولي. ويقول عنها المؤرِّخ رشيد الدين[٢] إنها لم تكن جميلةً ولكنها امرأةٌ شديدةُ التسلط، ووقعت تحت تأثير وصيفتها المسلمة فاطمة والوزير عبد الرحمٰن اللذَين شرعا في الدسِّ لكبار رجال دولة أوكداي، وخاصة محمود يلواج كما قد تقدم معنا.

ولم يكن بين آل جنكيزخان من تلتف حوله القلوب، وكان علىٰ أوكداي قبل وفاته أن يعيِّن خليفته. وقد شاع قولٌ مؤدّاه أن جنكيزخان نفسه قد أوصىٰ

---

(١) بارتولد: «التركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي» ص٦٧١، ٦٧٢.

(٢) المصدر السابق ص٦٧٥.

بأن يؤول العرش بعد موت أوكداي إلىٰ ابن أوكداي الثاني كوتان، ولكن كوتان هذا كان مصاباً بعلّةٍ لا شفاءَ منها، فأراد أوكداي أن يخلفه ابنه الثالث كوچو (Kochu)، ولكن كوچو مات قبل والده؛ لذا وقع اختيار القاآن علىٰ ابنه الصغير شيرامون، ولكنّ الأمراء والقادة اعترضوا علىٰ ذلك. وبعد مناوشات تم تعيين كيوك الابن الأكبر لأوكداي قاآناً أعظم للإمبراطورية[١]، بعد أن ظل عرش القاآن خالياً لمدة أربع سنوات.

ورغم ذلك فقد كان هناك من الأمراء من يرىٰ أن يؤول عرش المغول إلى أبناء تولي المعروفين بالشجاعة والحكمة.



---

(١) بارتولد: «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي» ص٦٧٥.

الفصل السادس

أحفاد جنكيزخان

القاآن كيوك ابن أوكداي (٦٤٤-٦٤٧هـ/ ١٢٤٦-١٢٤٩م):

يقول بارتولد: «لم يتصف كيوك بتلك الأخلاق السمحة التي كان يتمتع بها أبوه، وقد شابه أباه فقط في الولع الشديد بالخمر والنساء، غير أنه لم يبتسم قط، شديد العبوس سقيم النفس والجسد». ويقول رشيد الدين (كما ينقله عنه بارتولد): «إن خواصَّه والمقربين إليه كانوا لا يجرؤون علىٰ الحركة أمامه، فضلاً عن أن يفاتحوه في أي موضوع ما لم يبدأ هو الكلام فيه»[1].

غير أن القاآن الجديد أثبت جميع القوانين التي صدرت في عهد جنكيزخان وأوكداي. وكان القاآن يثني أمام الجميع علىٰ أرملة تولي سور ققتني بيكي وأولادها؛ لأنهم من بين سائر أمراء البيت المالك قد استمسكوا بالياسا، وامتنعوا عن كل تصرّف طائش خلال فترة خلوّ العرش، ولم يأخذوا من أموال الدولة أو الرعايا شيئاً.

وتم إعدام أخ جنكيزخان: أوچكين (Otchigin) الذي قام بمحاولة انقلابية للاستيلاء علىٰ عرش المغول أثناء خلّوه (أي قبل انتخاب كيوك). وبهذه الطريقة نفسها ثم الخلاص من فاطمة مستشارة الملكة توراكينا (أرملة أوكداي) ووزيرها عبد الرحمٰن، وقد اتُّهما بقتل كوتان بن أوكداي بالسحر.

---

(١) بارتولد: «التركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي» ص٦٧٦.

أما يلواج، ومسعود بيك ابنه، وأرغون، فقد علا شأنهم في عهد كيوك مرة أخرىٰ، وصاروا ولاةً علىٰ الصين وآسيا الوسطىٰ وآسيا الغربية(١).

وقرر كيوك تكوين جيش للقضاء على الإسماعيلية في شمال إيران المعروفين باسم الملاحدة أو الحشاشين عند المؤرخين المسلمين.

وقد قام كيوك بعزل رأس ألوس جغتاي، وهو قراهولاكو بن موتكن بن جغتاي، بحجة أن ييسو مونكو (مونككا) بن جغتاي لا يزال حيّاً، ولا يصح أن يتولىٰ الحفيد في حياة الابن. وكان ييسو صديقاً لكيوك، وكلاهما يشتركان في حب الخمر، إلاَّ أن ييسو كان لا يفيق من السكر، فتوّلت زوجته توقاشي (Toqashi) تدبيرَ شؤون مملكة ألوس جغتاي في تلك الفترة.

وكان وزير ييسو مونكو رجلاً مسلماً هو بهاء الدين مرغيناني، وهو من أسرة دينية تولت مشيخة الإسلام في فرغانة، وكان أبوه كذلك، وهو من أهل العلم والفضل. ويبدو أن بهاء الدين هذا فقد والده وهو في سن مبكرة، فتبنّاه (أي احتضنه) وزير جغتاي، حبشي عميد، وجعله يلازم ييسو مونكو هذا ويخدمه، فلما تولى ييسو مونكو أمرَ ألوس جغتاي أراد أن يبطش بحبش عميد لأنه انحاز إلىٰ ترشيح قراهولاكو (حفيد جغتاي) وأزاحه عن العرش. فما كان من بهاء الدين مرغيناني إلاَّ أن خفَّف من غضب ييسو على حبش عميد وأنقذ حياته. ولكن حبش عميد الحقود لم يرع لتلميذه هذه المنقبة، بل عمل عندما عادت له الأمور على البطش به، غيرةً منه وحقداً(٢).

---

(١) بارتولد: «التركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي» ص٦٧٧.
(٢) المصدر السابق ص٢٧٨.

ويقول بارتولد: «وعلىٰ وجه العموم فإنّ حكم كيوك القصير الأمد لم يكن خيراً للإسلام والمسلمين والعلوم الإسلامية. فإن كيوك قد وقع تحت تأثير المسيحيين المعادين للإسلام والمسلمين. وكان قد تولّىٰ تربيته شخص مسيحي هو قداق (Qadaq)، وتولىٰ الوزارة لديه رجلٌ داهيةٌ مسيحي هو جينغاي.. وكان من الطبيعي أن يُهرع إلى بلاطه النصارى من كل مكان في العالم: من روما وبلاد الشام والروم وروسيا. ولقد ترك كيوك المدمن للخمر أمر الدولة إلى قداق وجينغاي اللذين قاما بمهاجمة المسلمين بعنف، وقاما بتولية المسيحيين المناصبَ الهامة في الدولة[١].

جهود البابا في توطيد العلاقة مع القآن كيوك:

يقول الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد في كتابه «المغول في التاريخ»[٢]:

«قد أنفذ البابا سفارتين إلى منغوليا لمقابلة القآن كيوك، وغادرت السفارةُ الأولىٰ روما في إبريل سنة ١٢٤٥ برئاسة الراهب الفرنسيسكاني (يوحنا دي بلاك كاربين)، ووصلت في أغسطس ١٢٤٦ في الوقت الذي انتخب فيه القوريلتاي كيوك قآناً (خاناً أعظم) للمغول. وقد أحسن كيوك استقبال الوفد. وقد نجح وفد البابا المكوَّن من كاهنين في توطيد العلاقة مع الخان الأعظم كيوك، واستطاعا أيضاً أن يستميلا وزيرين من وزرائه فاعتنقا المسيحية.

غير أن كيوك عندما قرأ رسالة البابا التي يطلب فيها أن يعتنق الخان المسيحية، ردَّ عليه بأن طلب من البابا أن يعترف بسيادة القآن العليا عليه، وأن يقدُمَ عليه مع سائر أمراء الغرب الأوروبي ليحلفوا يمين التبعية. وقد

(١) بارتولد: «التركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي» ص٢٧٨ و٢٧٩.

(٢) د. فؤاد عبد المعطي الصياد: «المغول في التاريخ»، (١: ١٩٩-٢٠٠).

وصل الراهب يوحنا دي بلاك كاربين إلىٰ روما في نهاية سنة ١٢٤٧ بعد انتهاء زيارته لعاصمة المغول قره قوم.

وأرسل البابا وفداً ثانياً برئاسة الراهب الدومينيكاني أسكين اللومباردي، ووصلت البعثة إلىٰ تبريز في مايو ١٢٤٧، والتقت القائد المغولي باريجو الذي أبدى استعداداً لدراسة التحالف العسكري ضد المسلمين (الأيوبيين في ذلك الوقت)، ولكن ذلك لم يتم.

ووجد الأطباء المسيحيون دوراً يقومون به في البلاط المغولي، كما وجدت النساء النصرانيات الجميلات مكاناً لهن في قصور الحكّام من المغول.

وقد استغل المسيحيون هذا الوضع في مهاجمة الإسلام والمسلمين مهاجمةً عنيفةً من غير أن يستطيع المسلمون أن يردّوا عليهم. كما أنّ أم كيوك الملكة تركان خاتون كانت مسيحية.

ورغم ذلك فقد كان كيوك يجري مناظراتٍ بين النصارىٰ والمسلمين أمامه من حين لآخر، ومنها المناظرة التالية بين الإمام نور الدين الخوارزمي وأحبار النصارى.

النصارىٰ: بيّن لنا أي ضربٍ من الناس كان محمدٌ؟

الإمام نور الدين الخوارزمي: محمدٌ هو خاتم النبيين وسيد المرسلين. قال عنه موسىٰ عليه السلام: «اللهم اجعلني من أمة محمد». وبشَّر به عيسىٰ عليه السلام ﴿ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

النصارىٰ: إن النبي هو من يعيش حياةً روحانيةً خالصةً وليس له تعلّق بشهوة النساء كما كان عيسىٰ مثلاً، بينما كان لمحمدٍ تسعٌ من النساء وعددٌ من الأولاد، فكيف تفسرون هذا؟

الإمام: لقد كان للنبي داود تسعٌ وتسعون من الزوجات، وكان لسليمان ثلاثمئة وستون خليلةً وألفُ سُرِّية.

النصارىٰ: هٰذان لم يكونا من الأنبياء بل من الملوك...

ولكن النصارىٰ أوقفوا المناظرة، والتمسوا من كيوك أن يُصلي المسلمون أمامه، فدعا الإمامُ أحدَ المسلمين وشرعا في الصلاة. وجهد النصارىٰ بكافة الوسائل بإعاقة صلاتهما، وانهالوا عليهما ضرباً عند السجود، ولكنهما لم يقطعا صلاتهما حتى سلّما وانصرفا بهدوء.

وفي تلك الليلة هلك كيوك، واعتبر أولادُه أنّ ذلك انتقامٌ من السماء لهذا الإمام وأتباعه، وفي اليوم التالي اجتهدوا في الاعتذار له، وجهدوا في ترضيته.

وقد أدىٰ الموت المفاجئ للقاآن كيوك إلىٰ نزاع أكثر حدّةً، ولكنه أقصر أمداً من النزاع الذي أعقب موت أوكداي.

عودة المُلْك لبيت تولي بن جنكيزخان:

كما أسلفنا أن تولي كان هو أصغر الأبناء الأربعة لجنكيزخان، ولكنه كان أكثرهم شجاعةً وحنكةً عسكرية، ويعتبر بحق فاتح الصين. وكانت منطقة حكمه حسب قانون الياسا، ونظام المغول، هي ملك أبيه المباشر، وهي منطقة منغوليا ومنشوريا.

وقد توفي تولي في أثناء ملك أوكداي، وبقيت أرملته سورقفتني مسيطرةً علىٰ الأمور في منطقتها. وقد تميّزت بالحكمة والعقل والحصافة كما أسلفنا وتمتعت في عهد أوكداي وفي عهد ابنه كيوك بنفوذٍ عظيم. ورغم أنها كانت مسيحيةً إلّا أنها كانت تحب المسلمين وتقوم بمساعدتهم، بل قامت ببناء

مدرسة إسلامية في بخارىٰ، وجعلت لها الأوقاف، وولت أمرها الشيخ الإمام الصوفي باخرزي الذي كان له تأثيرٌ عليها.

ولما مات كيوك قام باتو بن جوجي - وهو أكبر من بقي من بيت جنكيزخان - بالتعاون مع هذه الملكة، ودعا إلىٰ إقامة قوريلتاي للتشاور في اختيار القاآن الجديد. وكعادة المغول تولت زوجة كيوك الأمر ريثما يتم اختيار القاآن الجديد، وقد عاونها في ذلك الوزير جينغاي.

وكان لباتو نفوذٌ عظيمٌ علىٰ المغول باعتباره فاتح روسيا وأوروبا، وجميع المناطق الشمالية إلىٰ بحر قزوين. وقام باتو بترشيح مونكو بن تولي ليتولىٰ العرش بعد كيوك، واستطاع أن يضمن له العرش بسبب نفوذه ونفوذ أرملة تولي الملكة سورقتني بيكي التي سُرَّت بترشيح ابنها.

مونكو يتولىٰ عرش المغول (٦٤٨-٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م):

تولىٰ مونكو منصب القاآن الأعظم، وبقي علىٰ توقيره واحترامه الشديد لباتو بن جوجي (في مقام عمه). وقد تمت إعدامات كثيرة بسبب مؤامرات متعددة لقتل مونكو. وأعاد مونكو مقاليد الأمور في ألوس جغتاي إلىٰ يد قراهولاكو، وقُتِلَ ييسو مونكو ابن جغتاي، وتم تعيين أورغانا خاتون حاكمة مؤقتة علىٰ ألوس جغتاي باسم ابنها الطفل مبارك شاه.

ويُقال: إن مبارك شاه بن ييسو مونكو ابن جغتاي هو أول أمير مغولي يعلن إسلامه، بينما يقول آخرون: إن بَرْكه خان بن جوجي بن جنكيزخان هو أول من أسلم من بيت جنكيزخان، وهو الأظهر.

ولا شك أن بَرْكه يكبر مبارك شاه، ومن المحتمل جداً أن يكون قد سبقه إلىٰ الإسلام، لكن مما لا شك فيه أن مبارك شاه (مباركشاه)، هو أول مَن أسلم من بيت جغتاي المعادي للإسلام.

وكان من جرّاء تعيين أورغانا خاتون أنْ عادت مقاليد السلطة إلى جيش عميد الحاقد، والذي قام بقتل الإمام بهاء الدين مرغيناني الذي وزر لييسو مونكو، وأنقذ حبس عميد من القتل، فجازاه هذه المجازاة البشعة.

نفوذ النَّصارىٰ في عهد مونكو:

تميز مونكو مثل أمه الملكة سورقتني بيكي بالحصافة والذكاء، كما ورث عن أبيه (تولي) الشجاعةَ والإقدام. وبما أن أمه كانت نصرانيةً فإن نفوذ المسيحيين في بلاطه كان أقوىٰ من نفوذ غيرهم، رغم أنه بقي شامانياً علىٰ دين أسلافه، ويتمتع بدرجة كبيرة من التسامح مع جميع أفراد رعيته مهما كانت أديانهم. ورغم ذلك فقد أوكل تربيةَ ابنه الأكبر (بلتو) وتعليمَه إلىٰ رجل نصراني، كما كان كبير وزرائه (بلغاي) نصرانياً أيضاً.

وقد عُرِفَ مونكو باعتداله لدرجة أنه لم يفرض قوانين الياسا علىٰ أصحاب الأديان الأخرىٰ، وسمح للمسلمين بذبح المواشي علىٰ طريقتهم، بل ذُبحت الماشية وفقاً للشريعة الإسلامية لضيوفه المسلمين أثناء حضورهم المأدبة التي أُقيمت بمناسبة اعتلائه العرش[١].

ويقول بارتولد[٢]: إن أتباع الديانات المختلفة كانوا يعتبرون القاآن مونكو من أتباع ملَّتهم، فهيتون النصراني يزعم أنه قد عُمِّد، بينما يرىٰ الجوزجاني أن مونكو قد نطق بالشهادتين عند اعتلائه العرش تحت إلحاح بَرْكه بن جوجي، بينما يرىٰ البوذيون أنه بوذي.

---

(١) بارتولد: «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي» ص٦٨٥ نقلاً عن ميرخوند.
(٢) المصدر السابق ص٦٨٦.

وقد أعدم مونكو رئيسَ الأويغور بعد محاكمته وثبوت التهمة عليه بأنه دبّر مؤامرةً لقتل المسلمين أثناء صلاة الجمعة. والغريب حقاً أن الذي حاكمه بنفسه هو القاآن مونكو.

وهذا يؤكّد ما قاله روبرك من أن ممثلي الديانات المختلفة كانوا كلهم يتبعون بلاطه كما يتبع الذباب العسل، وهو يمنحهم جميعاً، وكلهم يَعُدُّه من ملّته، ويدعو له بالخير والبركة. ولكن المؤرِّخ الجويني يعترف بأن المغول في عهده كانوا ينظرون إلىٰ المسلمين بشيءٍ من الازدراء؛ لأن المسلمين أنفسهم كانوا يدُسُّون ويكيدون بعضهم لبعض.

إصلاحات مونكو وسياسته[١]:

وقد أعفى مونكو رجالَ الدين من جميع الأديان ـ ما عدا اليهود ـ من الضرائب، وأظهر تسامحاً دينياً كبيراً، وأصرَّ علىٰ أن يسير الحكم في كل منطقةٍ من مناطق الإمبراطورية الواسعة وفقاً لأعراف أهلها وعاداتهم وأخلاقهم، ولهذا كان في بلاطه الكتبة من كافة الأعراق والأديان حتىٰ يقوموا بكتابة أوامره وقراراته باللغة المحلية، وبالأسلوب الذي يتوافق مع عادات وأعراف تلك المنطقة وأعرافها، وملوكهم الأولين.

وقد قام مونكو بإصلاح نظام الضرائب المتعسف، وألغىٰ القوانين والمراسيم السابقة الظالمة، وقضىٰ علىٰ نفوذ بيتَي جغتاي وأوكداي ما عدا مَن انضموا إليه.

وكان مونكو من أحسن الحكام المغول الذين برعوا في إصلاح نظام الحكم والعلاقات بين كافة الأمم التي يحكمها المغول، رغم محافظته بصورة عامة علىٰ أحكام الياسا.

---

(١) د. فؤاد عبد المعطي الصياد: «المغول في التاريخ» (١: ٢٠٩-٢١٣).

وكان منكو كارهاً للترف، متوقدَ الذكاء، سياسياً ماهراً وجندياً باسلاً. وقد خفّف الضرائب عن كاهل رعاياه، وحرَّم اغتصاب الدواب والأراضي من الرعايا. واستدعىٰ طائفةً من الإيرانيين مِن الإداريين المهرة وطلب إليهم تنظيم الدواوين والإدارة على أسس سليمة. واختار محمود يلواج حاكماً علىٰ الصين، ونصب ابنه مسعود بيك والياً علىٰ التركستان وما وراء النهر وبلاد الأويغور وفرغانة وخوارزم. وقد نهض الاثنان بالبلاد نهضةً مباركة.

وتجرَّد منكو من التعصّب الديني، وكفل الحريةَ للجميع، وصارت قراقوم في عهده مركز الدبلوماسية في العالم. وحينما وصل إليها «وليم روبرك» سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م سفير الملك لويس التاسع، لقي سفاراتٍ من ملك اليونان، وخليفة المسلمين العباسي (بغداد)، وملك دلهي في الهند، وسلطان سلاجقة الروم، كما صادف أمراء كثيرين من روسيا وكردستان والجزيرة (جزيرة ابن عمر وهي في شمال العراق وجنوب تركيا بين النهرين دجلة والفرات)، وتجاراً من أوروبا.

وكان منكو (الشاماني) يشهد الأعياد المسيحية والبوذية والإسلامية دون تفرقة أو تمييز، وهو قد سلَّم بوجود إلهٍ واحد يعبده كل إنسان حسبما شاء.

وقد سمح مونكو لسفير فرنسا أن يناظر العلماء المسلمين والبوذيين في حرية تامة، وقابلة مقابلةً حسنة، إلا أنه لم يوافقه علىٰ إيجاد حلف بين المسيحيين والمغول للإطباق علىٰ المسلمين، بل طلب أن يعلن ملك فرنسا لويس التاسع وجميع ملوك أوروبا الخضوع له، والاعتراف له بالسيادة. وعاد روبرك بخُفّي حنين، وسلَّم رسالة منكو إلى لويس التاسع في أغسطس ١٢٥٤ في مدينة عكا التي قدم إليها، وكانت لا تزال تحت حكم الصليبيين.

وكانت سياسة مونكو الخارجية هي: «يجب أن يكون أصدقاؤه أتباعاً له، أما أعداؤه فينبغي إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً أو يتم استئصالهم».

وقد قام ملك الأرمن بإعلان خضوعه للمغول، فأبقَوه علىٰ عرشه، وساعدوه علىٰ استرداد مناطقهم من السلاجقة، ولقي ملك الأرمن استقبالاً حافلاً في ١٣ سبتمبر ١٢٥٤ عندما قدم إلىٰ قراقوم.

وقد ولّىٰ مونكو أخاه الأصغر هولاكو قيادة الجيوش لإخضاع الإسماعيلية (الملاحدة عند أهل السنة) والحشاشين (assasins عند الغربيين)، وقد جاءت كلمة أساسين ـ أي: القاتل غيلةً ـ من تحريف كلمة الحشاشين الذين اشتهروا بقتل زعماء أهل السنة، بل وبعض قادة الصليبيين، غيلةً.

كما ولّىٰ مونكو أخاه الأوسط قوبلاي قيادة الجيوش لإخضاع جنوب الصين التي كانت تحكمها أسرة سونج. أما شمال الصين الذي كانت تحكمه أسرة كين فقد تم إخضاعها منذ عهد جنكيزخان نفسه، حتىٰ تم تصفيتها تماماً في عهد ابنه أوكداي. وكانت الانتصارات الأولىٰ علىٰ الصين ومملكة كين قد حققها تولي بن جنكيزخان والد مونكو في أثناء حياة جنكيزخان.

منكو يحارب الإسماعيلية (الحشاشين) في إيران ويقضي عليهم، وظهور هولاكو بن تولي:

وقد ولىٰ مونكو قاآن المغول أخاه هولاكو قيادة الحملة ضد الإسماعيلية الذين كانت لهم صولة وجولة في شمال إيران، واشتهرت قلعتهم ألموت شهرةً عظيمةً لمناعتها وقوتها. وكان الحكام والخليفة يخافون من هؤلاء الإسماعيلية الذين نشروا الرعب بعملياتهم الاغتيالية الجريئة، حتىٰ إن الخليفة العباسي كان كثيراً ما يجاملهم. ولما ثارت الحرب بين الخليفة

العباسي وعلاء الدين محمد خوارزمشاه كاتَبَهم الخليفة ليساندوه في حربه ضد علاء الدين.

وقد جهَّز مونكو الحملة تجهيزاً قوياً، وأرسل الأدلاء والعيون والرصد، وأكثر من المؤن وتأمين طرق وصولها، وموَّن الجيش من جميع أنحاء الإمبراطورية الباذخة. وقال مونكو لأخيه هولاكو: «إنك الآن علىٰ رأس جيشٍ كبير وقواتٍ لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران (أرض الترك أوتركستان) إلىٰ إيران، وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه، وخص كل من يطيع أوامرك ويستسلم لأمرك بلطفك وإنعامك، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة، وابدأ بإقليم قهستان فخرب القلاع والحصون. فإذا فرغت من هذه المهمة فعليك أن تتوجه إلىٰ العراق، وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرَّض له مطلقاً، أما إذا تكبَّر وعصىٰ فألحقه بالهالكين. وعليك أن تجعل رائدك العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تخفّف عن الرعية التكاليف والمؤن. وشاور دوقوز خاتون (وهي زوجة أبيه تولي ثم آلت من بعده إلىٰ ابنه هولاكو خان علىٰ عادة المغول في التزوج من نساء آبائهم). وكانت امرأةً عاقلةً ذكيةً، فكان هولاكو يشاورها في جميع الأمور.

وبدأ هولاكو بإقليم قهستان وهو أحد أهم معاقل الإسماعيلية، فحطَّم حصونها وقلاعها. وقد شجَّع المسلمون الذين كانوا تحت حكم المغول أسيادهم علىٰ القضاء علىٰ الإسماعيلية؛ لما ذاقوه منهم من عنَتٍ وجَور وظلم، كما أن أهل قزوين سُنّة، وهؤلاء الإسماعيلية باطنية علىٰ عداء دائم وتام معهم. حتى إن قاضي قزوين (شمس الدين أحمد الكافي القزويني) طلب من القاآن مونكو أن يغزو بلاد هؤلاء الملاحدة ويخرِّب حصونهم.

وقد خرج هولاكو من قراقوم عاصمة المغول سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، ووصل سمرقند سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م؛ لأنه لم يكن في عجلةٍ من أمره، واستمر في مجالس الأنس في مدن التركستان وخراسان.

هولاكو يكتسح إيران ومعاقل الإسماعيلية (٦٥٣-٦٥٤هـ/ ١٢٥٥-١٢٥٦م):

وأرسل هولاكو إلىٰ حكّام إيران وأمرائها خطاباً يقول فيه: «لقد أتينا هنا بناءً علىٰ أوامر الخان الأعظم، وعزمنا علىٰ تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء علىٰ تلك الطائفة، فإذا ساهمتم معنا في تلك الحملة بالجيوش والعُدد والآلات فسوف تبقىٰ لكم ولاياتكم وجيوشكم، أما إذا تهاونتم في امتثال الأمر فإننا حين نَفرغ بقوة الله تعالىٰ من أمر الملاحدة، فسوف لا نقبل عذركم، ونجري عليكم ومساكنكم ما قد جرىٰ عليهم»[(١)].

وكان الإسماعيلية يستوطنون الجبال في ولاية طالقان وروذبار ألموت، وأشهر قلاعهم ألموت وميمون دز ولنبه سر، ولم تؤدِّ المعارك إلى نتيجة حاسمة.

وقتل زعيم الإسماعيلية علاء الدين محمد في شوال ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م بسبب مؤامرة داخلية دبرها حسن مازندراني حاجب علاء الدين مع ركن الدين خورشاه ابن علاء الدين. وكان الابن يحقد على أبيه لأنه خلعه من ولاية العهد وأساء معاملته، ولكن ركن الدين بعد أن تخلّص من أبيه قتل حسن مازندراني الذي دبر الاغتيال حتى لا يفتضح أمره بين الإسماعيلية.

---

(١) رشيد الدين: «جامع التواريخ» ص٢٤٠.

وتقدم هولاكو نحو القلاع المنيعة في ذي الحجة ٦٥٣هـ يناير ١٢٥٦م) وبدأ بمحتشم (حاكم) قهستان ناصر الدين أبي الفتح عبد الرحيم، وكتب إليه رسالة الترغيب والترهيب، فرد ناصر الدين برسالة أبدىٰ فيها خضوعه واستسلامه، وقدَّم الهدايا، وقبَّل الأرض بين يدي هولاكو، فقبل هولاكو الهدايا، وعيَّنه حاكماً علىٰ مدينة تون.

وأرسل هولاكو إلىٰ ركن الدين خورشاه يطلب إليه الخضوع والتسليم، ولم ينتظر الرد بل شرع في الهجوم، واستولىٰ علىٰ معظم القلاع، ولكن استعصت عليه قلعة ألموت وقلعة ميمون دز التي كان فيها ركن الدين، فأرسل إليه هولاكو يخوفه حتىٰ يسارع بالتسليم، فأرسل ركن الدين الهدايا مع الخواجه نصير الدين الطوسي في شوال ٦٥٤هـ، واستسلم في غرة ذي القعدة.

وأخذ هولاكو معه ركن الدين خورشاه إلىٰ معقل الإسماعيليَّة في ألموت ليحُثَّ المدافعين علىٰ الاستسلام، ورفض آمر القلعة الاستسلام أول الأمر، ولكنه استسلم في اليوم الثالث.

وقد استأذن المؤرِّخ عطا ملك الجويني هولاكوخان في الاطلاع علىٰ محتويات المكتبة الهامة التي كانت فيها مجموعة قيّمة من المصاحف وآلات الرصد والكتب، ومنها كتاب سيرة الحسن بن الصباح وخلفائه. وقد ضمَّن الجويني سيرتهم في كتابه «تاريخ جهانكشاي» (الجزء الثالث)، وحفظ لنا بذلك تاريخاً مهماً كاد أن يضيع لولا جهود الجويني.

وأبقىٰ هولاكو علىٰ ركن الدين خورشاه، وعامله معاملةً حسنةً ليساعده في التغلب علىٰ طائفة الإسماعيلية (الحشاشين) في سوريا، ولكن المغول قتلوه مع جميع أفراد أسرته قبل ذلك.

يقول الجويني عن إبادة الإسماعيلية: «لقد كان هذا العمل مَرهماً لجراح المسلمين، وتداركاً للدِّين من الخلل». وفرح المسلمون في إيران وفي ما وراء النهر وفي العراق بهذا الخبر، ولم يعلموا أن المغول أشد هَوْلاً وهلاكاً لهم من الإسماعيليّـة.

هولاكو والدولة العباسية وتدمير بغداد عاصمة الخلافة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨):

لقد انغمست الخلافة العباسيّـة في الترف، واعتراها ما يعتري الدول عند شيخوختها، فهان مقام الخلافة، وتولىٰ البويهيون (الشيعة الجعفرية الاثني عشرية) الحكم في بغداد نفسها، وخضع لهم الخليفة، ثم جاء السلاجقة السنة منقذين، ولكنهم أيضاً أذلّوا الخلفاء إذا ما خالفوهم؛ وكانوا يسملون أعينهم ويعزلونهم، ويعينون عباسياً آخر مكان الخليفة السابق، فساءت الأمور.

ثم جاءت الدولة الخوارزمية، وخاصة في عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي انتصر علىٰ السلاجقة، فطلب من الخليفة أن تكون له نفس مكانة السلاجقة (الدعاء علىٰ المنابر.. إلخ)، فرفض الخليفة العباسي الناصر لدين الله ذلك، مما جعل السلطان علاء الدين يحارب الخليفة ويتحول إلىٰ المذهب الشيعي ويعيّن خليفةً علوياً. ولكن حملته علىٰ بغداد فشلت بسبب سوء الأحوال الجوية. وأدّىٰ ذلك كله كما أسلفنا إلىٰ أن يقوم الخليفة بالتودد إلىٰ أعدائه الإسماعيليّـة في إيران، والمغول الذين بدأت قوتهم تظهر، وأرسل إلىٰ جنكيزخان يحثّه علىٰ البطش بدولة علاء الدين خوارزمشاه، وكان ذلك من الأسباب التي شجَّعت جنكيزخان علىٰ حربه للدولة الخوارزمية التي وجدها أضعف مما تصوَّر، فقضىٰ عليها، واستطاع أولاده أن يجتاحوا ما بقي من أراضيها.

وفي عهد هولاكو كان الخليفة العباسي هو المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م)، وكان في ذاته متديِّناً، لكنه مستضعف الرأي، ضعيف البطش، غير مطلع علىٰ حقائق زمانه، يقضي أكثر وقته في سماع الأغاني من جواريه كما يقول ابن طباطا في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية» ص٢٩٠.

وكانت الأخبار تصل إلىٰ الخليفة تباعاً باقتراب جيش المغول، ومع ذلك لا يتخذ الأهبة لمواجهتهم، وكان يقول: «أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها (أي المغول) عليّ إذا نزلتُ لهم عن باقي البلاد»[1].

وكان يظن أنه يستطيع أن يقفَ ضد المغول. وأدّىٰ الخلاف بين وزيره ابن العلقمي الشيعي ورئيس قواته مجاهد الدين أيبك السني إلى اضطراب أمر الدولة، وخاصةً أن الشيعةَ يحقدون علىٰ السنة بعد أن أغار عليهم أبو بكر ابن الخليفة المستعصم في الكرخ وقتلهم شرّ قتلة.

فكاتَبَ ابنُ العلقمي هولاكو، وأطمَعَهم في ملك بغداد، تماماً كما فعل الخليفة العباسي السابق الناصر لدين الله وشجّع جنكيزخان علىٰ غزو خوارزمشاه!

وتكرر الخراب الاقتصادي، وخاصةً في آخر صيف سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م عندما غرقت بغداد في المياه بسبب السيول الجارفة.

وعندما صمم هولاكو علىٰ مهاجمة الإسماعيلية طلب من الخليفة أن يمده بجيش لمحاربتهم، فامتنع عن إرسال المدد لهولاكو. ولما فرغ هولاكو من الإسماعيلية قصد هَمَذان وأرسل إلى الخليفة رسال تهديد ووعيد في رمضان سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م وفيها يقول: «لا بدَّ أنه قد وصل إلىٰ سمعك علىٰ لسان الخاص والعام ما حدث للعالم علىٰ أيدي الجيوش المغولية منذ

---

(١) ابن شاكر الكتبي: «فوات الوفيات» (١: ٤٩٦).

جنكيزخان، وعلمت أي مذلة لحقت بأُسرَ الخوارزميين والسلاجقة وملوك الدَّيلم وغيرهم، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد في وجه أي طائفة من تلك الطوائف، فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قدرةٍ وسلطان؟! وعليك أن تهدم الحصون، وتطم الخنادق، وتسلم ابنك المملكة ثم تتوجه لمقابلتنا. وإذا كنتَ لا تريد ذلك فأرسل إلينا الوزير (ابن العلقمي) وسليمان شاه والدواتدار (مجاهد الدين أيبك) ليوصلوا رسالتنا إليك، فإذا أطَعْتَ أمرنا نُبقي لك ولايتك وجيشك ورعيتك، أما إذا لم تنتصح فأعدّ جيشك، وعين جبهةً للقتال، فإننا مستعدون لمحاربتك. واعلم أنني إذا غضبت عليك فسوف لا تنجو منّي ولو صعدت إلىٰ السماء أو اختفيت في باطن الأرض».

فرد الخليفة بالرفض قائلاً: «أيها الشاب الحَدَث الذي لم يخبر الأيام بعد، والذي يتمنىٰ قصر العمر، وإن كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظةً ولا تعتذر؛ فإن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجال، هم علىٰ أهبة الاستعداد للقتال».

والغريب حقاً أن الخليفة بعد هذا كله وبعد تهديده لهولاكو لم يستعد للقتال أبداً. ولمَّا وصلت رسل الخليفة إلىٰ هولاكو ازداد غضباً، وخاصة أن رسله لاقوا معاملةً سيئةً من العامة، فأرسل إنذاراً نهائياً للخليفة وفيه: «لقد فتنك حُبُّ الجاهِ والمالِ والعجبُ والغرورُ بالدولة الفانية، ولم يعد يؤثّر فيك نصح الناصحين، وإنَّ في أذنيك لوقراً، وقد انحرَفْتَ عن طريق آبائك وأجدادك، وعليك أن تكون مستعداً للقتال، فإني متوجّه إلىٰ بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرىٰ سير الفَلَك علىٰ شاكلةٍ أخرىٰ فتلك مشيئة الله.

فلما وصلت هذه الرسالة أشار الوزير العلقمي بأن يبذل الخليفة الأموال والهدايا لهولاكو، وأن يعتذر له ويذكر اسمه في الخطبة. ولكن مجاهد الدين

أيبك الدوتدار رفض ذلك ومعه رجال الجيش، وأصرَّ علىٰ المقاومة، فقبل الخليفة ذلك، ولكنه للأسف لم يستعد للقتال، ولم يعدّ للأمر أهبته كما ينبغي.

وتحرَّك هولاكو بجيوشه من همذان إلىٰ دجلة عن طريق كرمنشاه وحلوان، وكان معه الأمير أرغون والخواجه نصير الدين الطوسي والوزير سيف الدين البتكجي (بهادر بن عبد الله الخوارزمي وزير هولاكو، وهو الذي طلب من هولاكو أن يرسل مئةً من الجنود المغول إلىٰ النجف لحماية قبر الإمام علي بن أبي طالب ومقامه)، وعلاء الدين عطا ملك الجويني المؤرِّخ.

واستطاع هولاكو عندما اقترب من بغداد أن يضم كثيراً من قادة وجنود جيش سليمان شاه بن برجم (أحد قواد الخليفة المستعصم). وتمَّ إحكام الحصار علىٰ بغداد في ٢٢ من المحرَّم ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، واستمر ذلك حتىٰ نهاية الشهر. وفي أثناء ذلك كان المغول يهجمون علىٰ التحصينات، ويخربون الجانب الشرقي منها تخريباً كاملاً.

فلما رأىٰ الخليفة أنْ لا طاَقة له بالمغول أرسل سليمان شاه والدوتدار (قادة الجيش) إلىٰ هولاكو استجابةً لطلب هولاكو، فلما وصلا إليه طلب هولاكو منهما أن يأتيا بأتباعهما، فلمّا خرجوا قتلهم هولاكو عن بكرة أبيهم، وعلَّق رؤسهم علىٰ أسوار المدينة، فكان ذلك إيذاناً بالخراب التام لبغداد.

وفي ٤ صفر ٦٥٦هـ/ ١٠ فبراير ١٢٥٨م خرج الخليفة المستعصم من بغداد، وسلَّم نفسه وعاصمته للمغول بعد أن أوهمه الوزير ابن العلقمي بأنه قد مهَّد للصلح من هولاكو، ولا داعي لهرب الخليفة كما كان قد اقترح سليمان شاه والدوتدار، قبل أن يقتلهما هولاكو. فخرج الخليفة مع ١٢٠٠ شخص من علية القوم من قضاةٍ ووجهاءَ وأمراءَ وتجار، فقضىٰ عليهم هولاكو

عن بكرة أبيهم، واستبيحت بغداد دون أية مقاومة بعد أن قُتل قائدا الجيش، والخليفة، ومعظم رجال دولته، ما عدا ابن العلقمي الذي تمالأ مع هولاكو، لينتقم للمذبحة التي أقامها السنة ضد الشيعة، وكان قائد جند الخليفة في ذلك أبو بكر ابن المستعصم (ابن الخليفة)، فحقد عليهم ابن العلقمي، وانتقم منهم بخيانته وممالأته لهولاكو، وإن كانت الخيانات في ذلك العهد متبادلة. وقد استخرج هولاكو خزائن الذهب والجواهر قبل أن يقتل الخليفة. واستباح هولاكو بغداد فقتل أغلب سكانها، ولم يَسلَم إلا من اختفىٰ في بئر أو قناة، وأُشعلت النيران في دور بغداد بعد أن تم نهبها، واستمرت الاستباحة أربعين يوماً، قتل فيها ما يقرب من المليون (ثمانمئة ألف في تقدير وألف ألف في تقديرٍ آخر)، وأدىٰ انتشار الجثث والعفونة إلىٰ انتشار الأمراض، فقضت علىٰ من بقي من سكّان بغداد وما حولها. وقد أمر هولاكو أن يجعل الخليفة في جولق (كيس)، ويداس بأرجل الخيل حتىٰ لا يريق دمه؛ حيث حذَّره بعض المنجمين المسلمين من إراقة دم الخليفة. وولّىٰ هولاكو أمر بغداد إلىٰ ابن العلقمي بعد أن أذلَّه، ولم يلبث إلاّ أشهراً قليلةً ثم مات في نفس العام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

خيانة ابن العلقمي الشيعي:

وقد أدانت معظم المصادر الإسلامية التاريخية ابنَ العلقمي الشيعي علىٰ خيانته، حتىٰ إن القاضي نور الله الشُشتري (الشيعي) المرعشي (المتوفىٰ سنة ١٠١٩هـ). اعترف صراحةً ـ في كتابه «مجالس المؤمنين» ص٤٠٠ ـ بالدور الذي لعبه ابنُ العلقمي، فقال: «إنه كاتَبَ هولاكو والخواجه نصير الدين الطوسي (شيعيٌّ عالمٌ بالفلك عمل مستشاراً لهولاكو)، وحرَّضهما علىٰ تسخير بغداد للانتقام من العباسيين؛ بسبب جفائهم لعترة سيد الأنام ﷺ وآله».

ولا شك أن ابن العلقمي قد خدعته وعود هولاكو، كما أعماه حقده علىٰ الخليفة، وخاصةً بعد المذبحة التي دبرها ضد الشيعة في الكرخ في بغداد، وليس من المستغرب أن يعمد هذا الوزير إلىٰ مكاتبة هولاكو المغولي، فقد كاتب خليفةٌ عباسيٌّ آخر ـ هو الناصر لدين الله ـ جنكيزخان ليبطش بعدوه علاء الدين محمد خوارزمشاه، سلطان الدولة الخوارزمية الباذخة التي كانت تعادي الخليفة العباسي، والتي أعلنت تحولها من المذهب السنّي إلىٰ المذهب الشيعي.

وهكذا نرىٰ كلاًّ من الشيعة والسنة يتآمرون ضد بعضهم البعض، ويمدون أيديهم للمغول الوثنيين، وبذلك كانوا دماراً وهلاكاً على أنفسهم وديارهم وعلىٰ الإسلام والمسلمين كافة.

وابتهج المسيحيون في كل مكان باكتساح بغداد، وهلّلوا لهولاكو وزوجته المسيحية دوقوز خاتون، واعتبروهما قسطنطين وهيلينا، وأنهما ليسا إلّا أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح(١).

وقد أيّد المسيحيون النساطرة هولاكو، ومنهم الأمير كيتوبغا، ونصارىٰ الكَرَج (جورجيا حالياً)، وهم كانوا أول من اقتحم أسوار بغداد، واشتهروا بشدتهم وقسوتهم في التخريب والتدمير.

وانتهت الخلافة العباسية حتىٰ أقام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس طفلاً من بني العباس ونادىٰ به خليفةً، في القاهرة سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، وبقي الخليفة العباسي كرمز روحي للمسلمين، حتىٰ غزا السلطان العثماني سليم الأول مصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، وألغىٰ الخلافة العباسية وتحوَّل هو إلىٰ خليفةٍ للمسلمين. وبقيت الخلافة في آل عثمان حتىٰ ألغاها كمال أتاتورك.

---

(١) رنسيمان: «تاريخ الحروب الصليبية» (٣:٥٢٢)، نقلاً عن الصياد: «تاريخ المغول» ص٢٨١، ٢٨٢.

مثالٌ آخر من رسائل هولاكو للمسلمين:

رسالة هولاكو إلىٰ السلطان قطز:

بعد أن احتل هولاكو مناطق من الشام سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م من ملك الملوك شرقاً وغرباً القاآن الأعظم (أي أنه كتب الرسالة باسم القاآن الأعظم):

«باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا[١] إلىٰ هذا الإقليم، يتنعمون بإنعامه. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا علىٰ من حلَّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا لنا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطاء، فنحن ما نرحم من بكىٰ، ولا نرقُّ لمن شكا. وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب».

وقد توجه هولاكو بعد تدميره بغداد إلىٰ الشام بأربعمئة ألف جندي ونيَّـته الاتجاه إلىٰ مصر للقضاء علىٰ آخر دولةٍ إسلامية، وبينما هو يدبّر لذلك إذ بلغه خبر موت أخيه الأكبر القاآن مونكو، ووقوع الخلاف بين أخيه قبلاي وأرتق بوغا (أريغ بوكا)، كما بلغه أن أبناء جغتاي رفعوا ألوية العصيان؛

---

(١) أصل قطز من أمراء الدولة الخوارزمية الذين فرّوا بعد تحطيم هذه الدولة، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه.

بسبب إغواء بَرْكه خان لهم، فتكدَّر وقرَّر العودة بمعظم جيشه إلىٰ بلاد المغول، وترك أحد أبرز قواده كتبغا (أحد أمراء المغول الشجعان) مع عشرة آلاف من الجند. فاستطاع السلطان قطز وقائده ركن الدين بيبرس أن يقضيا علىٰ كتبغا وجيشه بعد معركة حاسمة في عين جالوت.

ولولا فضل الله تعالىٰ ولطفه بالمسلمين لما استطاعت قوات قطز وركن الدين بيبرس أن تقف في وجه هذه الجحافل؛ حيث بلغ تعداد جيش هولاكو أكثر من أربعمئة ألف كما تقول المصادر التاريخية.

وقد أدّىٰ موت مونكو المفاجئ، وحدوث الفتن في البيت المالك، وثورة آل جغتاي، ودور بركه خان إلىٰ رفع الغمة عن المسلمين وبداية انتصارهم.

بركه خان (٦٤٠-٦٦٥هـ/ ١٢٤٢-١٢٦٧م):

بَرْكه خان بن جوجي بن جنكيزخان، (أول من أسلم من أمراء المغول)[١]، إسلامه سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م.

بركه خان هو ثالث أبناء جوجي. . يصغر باتو بأعوام قلائل، ولا نعرف عن سيرته قبل أن يرقىٰ العرش (بيت جوجي) إلاّ القليل. ولم يشترك بركه في الحروب التي نشبت في روسيا (١٢٣٤-١٢٤٢م). وكان يتردّد علىٰ بلاد المغول أكثر مما يفعل أخوه باتو. واشترك في القوريلتاي الذي عقد عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م بمناسبة تتويج كيوك قاآناً ثم تتويج مونكو عام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م. ورأس بركه المجلس الأخير باعتباره أسنَّ الحاضرين من البيت المالك، كما كان له شأنٌ كبيرٌ في محاكمة أحفاد جغتاي وأوكداي، حتىٰ إن

---

(١) نقلاً عن «دائرة المعارف الإسلامية»، ترجمة أحمد الشنتناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس) (٣: ٥٦٤-٥٦٨)، المادة التي كتبها وحررها بارتولد.

أُلغا حفيد جغتاي جعل بركه خان المسؤول وحده عما حلَّ بأهل بيته (أي بيت جغتاي) من النكبات.

ويصف ربروكيس في يومياته عام ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م معسكر بركه خان، وأنه لم يكن يسمح بأكل الخنزير في معسكره.

ويقول الجوزجاني في كتابه «طبقات ناصري» (ص١٢٨٤): إن بركه درس القرآن في حداثته بخوقند (خجنده) علىٰ فقيه من أهل هذه المدينة. ويروي الجوزجاني في موضع آخر من كتابه (ص١٢٩٢) قصة الكراهية التي كان يضمرها سرتاق بن باتو بن جنكيزخان ـ بصفته نصرانياً ـ لعمه بركه خان المسلم، ويزعم الأرمني كيراكوس أن بركه خان دسَّ السمَّ لابن أخيه.

ويقول بارتولد كاتب هذه المادة في (دائرة المعارف الإسلامية): إنّ عاصمة بركه خان كانت مقرَّ أسقف نصراني عام ١٢٦١م، مما يدل علىٰ سماحته مع الأديان الأخرىٰ.

ويقول الجويني: إن القاآن مونكو قد جعل سرتاق بن باتو خلفاً لوالده في ممتلكاته، ونصَّبه أميراً علىٰ بيت جوجي، وأول أمير في الدول كلها بعد القاآن (أي أخذ منصب والده باتو)، ولكن سرتاق تُوفي بُعَيد ذلك بقليل، وذلك عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٦م.

وكان بَرْكَه يحكم بلاد (الأورد الذهبي) وهي منطقة روسيا وحوض نهر الڤولجا وبلاد البلغار، كما كان بالإضافة إلى ذلك يحكم بلاد ما وراء النهر (والمقصود نهر جيحون ـ أموداريا)، وهي أرض التركستان، بعد أن بطش بالأمراء من بيت جغتاي.

ويقول الجوزجاني: إن بَرْكه خان زار بخارىٰ، وأظهر تبجيله لعلمائها، وإنه أمر أن يعاقب نصارىٰ سمرقند لاعتدائهم علىٰ مواطنيهم من المسلمين

وهدمهم دور العبادة لهم؛ فأمر بأن تهدم كنيستهم جزاءً وفاقاً. ويقول كتاب «أضواء على تاريخ توران» للسيد عبد المؤمن (من بقايا أمراء بخارىٰ) إن بركه خان عندما وصل بخارىٰ لزيارة الشيخ سيف الدين الباخرزي سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٤٢م قبّل يد الشيخ وأعلن إسلامه.

وعندما مات القاآن مونكو عام ١٢٥٩م جعلت الخطبة لبركه خان فيما وراء النهر وخراسان وولايات فارس الأخرىٰ (طبقات ناصري ص ١٢٩٢).

وفي خلال السنوات الأربع التالية (١٢٦٠-١٢٦٤م) اشتدت المعارك بين أبناء مونكو وهما: قبلاي وأريغ بوغا، وقد أيد بركه خان.

ثم ظهر أميرٌ من بيت جغتاي هو أُلغا الذي استطاع أن يضم بلاد جده جغتاي إليه، ويضيف إليها خوارزم التي كانت تابعةً لبيت جوجي وخلفائه. وقامت المعارك بين بركه وأُلغا، وقتل شطر من جيش بركه الأشداء في بخارىٰ، وظلت الحرب قائمة بينهما حتىٰ توفي بركه. وواصل الأمير قيدو حفيد أوكداي الحرب ضد ألغا حفيد جغتاي.

وقد استطاع بركه أن يُخضع ثورة البولنديين واستقلال ملك غاليسيا دانيال وذلك عام ١٢٥٧م. ولم يحتج بركه إلىٰ أن يحضر بنفسه إلىٰ ميدان القتال من بلاد ما وراء النهر، وإنما قام قواده بالمهمة بنجاح.

أمّا الحرب بين بركه وابن عمه هولاكو فاتح بلاد فارس، فقد كانت أهم من الحروب التي سبقتها، وإن كان بركه فيها أقل توفيقاً. وقد قام بركه بتعنيف هولاكو تعنيفاً شديداً على تخريبه ديار الإسلام ـ وخاصة بغداد ـ وقتله الخليفة العباسي المستعصم الذي استسلم لهولاكو دون قتال.

وانتصر بركه خان في أولىٰ تلك المعارك، ووصل إلىٰ نهر ترك في نوفمبر ـ ديسمبر عام ١٢٦٢م، وفقد هولاكو شطراً كبيراً من جيشه أثناء

تقهقره، وهلك كثيرون في نهر ترك، وكان الثلج الذي يغطيه يتكسر تحت سنابك الخيل، ولم يحضر بركه بنفسه هذه الوقعة.

وذبح هولاكو التجارَ المسلمين من مملكة بركه خان، كما رد بركه بقتل تجار هولاكو.

الحرب بين بركه خان وهولاكو[1]:

بدأت الحرب بين بركه خان المسلم وهولاكو المغولي المتعاطف مع المسيحيين عندما دمَّر هولاكو أراضي المسلمين في خراسان وإيران في اتجاهه إلىٰ الخلافة العباسية في بغداد ليدمرها.

وبدأت العمليات العسكرية بينهما سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م. وإلىٰ هذا العام نفسه ترجع أولى سفارات بركه إلىٰ مماليك مصر. وكان سبب هذه الحرب مطالبة آل جوجي بمقاطعتي أران وأذربيجان اللتين احتلهما هولاكو، وموت بعض أفرادٍ من بيت جوجي بإيران بعد أن تم تسميمهم.

هذا فوق أنّ بركه بوصفه مسلماً قد أعلن نفسه حامياً للمسلمين من اضطهاد هولاكو. وكان أُلغا قد عمل من جانبه علىٰ إثارة هولاكو ضد بركه؛ باعتبار أن بركه قد شجَّع القاآن مونكو لاجتثاث آل بيته (أي بيت جغتاي).

وأدت الحروب إلىٰ خرابٍ كثيرٍ من مدن التركستان، ولكن بفضل سياسة مسعود بيك الحكيمة استعادت بخارىٰ وسمرقند ومدن ما وراء النهر شيئاً من رخائها السابق. وبحلول عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م كانت مدن ما وراء النهر في حالةٍ تنعم فيها بشيء من الأمان والرخاء، بينما كانت مدن خراسان وإيران تواجه حملاتٍ متكررةً من المغول بقيادة أُلغا وهولاكو.

---

(١) نقلاً عن كتاب «التركستان» لبارتولد ص٧٠٢-٧٠٤.

وفي أثناء الحرب بين هولاكو وبركه أرسل قوبلاي مبعوثاً ليقوم بإحصاءٍ جديدٍ لبخارىٰ، وبالذات للقوات المغولية فيها. وكان فيها ستة عشر ألفاً من العساكر المغول من بينهم خمسة آلافٍ لباتو (ألوس جوجي)، وثلاثة آلاف لأم هولاكو (ألوس جغتاي)، أما الباقون وهم ثمانية آلاف فينتمون إلىٰ القاآن (أي يتبع الجيش الكبير الذي يخص القاآن). وبأمر من قوبلاي تم قتل عسكر ألوس جوجي عن بكرة أبيهم مع نسائهم وأطفالهم، كما صودرت ممتلكاتهم.

وفي تلك الأثناء ارتفع شأن قايدو بن قاشين بن أوكداي الذي أسس دولةً مستقلةً بآسيا الوسطىٰ، وهو الوحيد بين أبناء جنكيزخان وأحفاده الذي لم يمس الخمر أبداً.

علاقة بركه خان بالظاهر بيبرس:

أصل الظاهر بيبرس من قازاقستان، كما أنّ السلطان قطز من الأسرة المالكة الخوارزمية التي قضى عليها جنكيزخان.

بعث الظاهر بيبرس برسالة من القاهرة عام ٦٦٠هـ/ (١٢٦١-١٢٦٢م) إلىٰ بركه خان للتعاون ضد هولاكو الذي يمثل خطراً ماحقاً ضد الإسلام والمسلمين. وفي المحرَّم عام ٦٦١هـ (ديسمبر ١٢٦٢م) ذهبت بعثةٌ من القاهرة إلىٰ بركه. وفي ربيع ١٢٦٣م وصلت بعثة من بركه خان إلىٰ القاهرة قبل أن ترجع البعثة التي أوفدها بيبرس. ووصف الرسل المصريون بركه خان بأنه خفيف اللحية، كبير الوجه، في لونه صفرة، ويلبس في وسطه سيفاً، وفي أذنه حلقة ذهب فيها جوهرة ثمينة، وعليه قباء خطائي. ويقال: إن عمره آنذاك كان ٥٦ عاماً. ويعاني من وجع النقرس مثل أخيه باتو.

وفي عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م استأنف بركه الحرب ضد إيلخانية فارس التي كان يحكمها في ذلك الوقت أباقا الذي خلف هولاكو، غير أن هذه الحرب لم تؤد إلىٰ نتيجة. ومات بركه خان عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م حسب المصادر المصرية، بينما تقول الحوليات الروسية إنه توفي ما بين سبتمبر ١٢٦٥م وسبتمبر ١٢٦٦م. وبوفاة بركة عاد جيشه إلىٰ بلاده، ولم تتم المعارك بين الجيشين العدوّين.

ولم يعقّب بركه ذريةً، فآل العرش إلىٰ منكوتيمور حفيد باتو. وقد أقام بركه خان دولةً مستقلةً عن دولة القاآن وعن بقية المغول.

وتتحدّث المصادر المصرية عن بركه خان أنه أقام عدة مدارس لتعليم القرآن الكريم، وأنه كان له ولجيشه إمامٌ ومؤذِّن، كما كان لكل زوجةٍ من زوجاته ولكل أميرٍ من أمراءِ بيته: إمامٌ ومؤذِّن.

وقد اعتنق الإسلام عددٌ من إخوته بجهوده، كما اعتنقه بعض قواد جيشه، ولكن الإسلامَ لم يَسُدْ في مملكته إلاّ بعد وفاته بنصف قرن. وجعل بركه خان عاصمته السراي التي أسسها باتو، وأصبحت مدينةً عامرةً وكبيرةً في عهده.

وقد أسلمت زوجة بركه خان ليجيك خاتون، واتخذت مسجداً من الخيم كانت تسافر به، ولها مؤذِّن وإمام. وكان بركه خان منذ إعلان إسلامه سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م حتىٰ وفاته سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م يحافظ علىٰ إقامة الصلوات في أوقاتها جماعةً، وله مؤذِّن وإمامٌ خاصّ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء.

* * *

الفصل السابع

تجديد التحالف بين النصرانية والمغول

لقد أظهرت المسيحية نشاطاً كبيراً لدىٰ خانات المغول وزعمائهم. وكما أسلفنا فإنّ الأديان الثلاثة: البوذية والمسيحية والإسلام حاولت جهدها أن تؤثر علىٰ هؤلاء المغول وأن تضمهم إلى معسكرها في حربها ضد المعسكرات الأخرىٰ.

وكانت الحرب الصليبية قد اشتد أوارها بين المسيحيين الصليبيين وبين المسلمين، فكان من الطبيعي أن تسعىٰ القوىٰ المسيحية المختلفة للتأثير علىٰ المغول وضمهم إلىٰ صفوفهم.

وكما رأينا كيف استطاع المسيحيون أن يؤثروا علىٰ كيوك بن أوكداي رغم حكمه القصير (٦٤٤-٦٤٧هـ/ ١٢٤٦-١٢٤٩م)؛ فقد كانت أمه مسيحيةً، وتربىٰ هو علىٰ يد مسيحي هو قداق، وكان وزيره الأول جينغاي الداهية (وهو من الأويغور) مسيحياً. وكان من الطبيعي أن يُهرع إلىٰ بلاطه المسيحيون من كل أرجاء العالم، باعتبار المغول القوة العسكرية الأولىٰ. وقد شرحنا جهود البابا في التأثير علىٰ كيوك وإرساله البعثة الأولىٰ برئاسة الراهب الفرنسيسكاني (يوحنا دي بلاك كاربين) التي وصلت عند انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، ولكن جهوده في إيجاد حلف فشلت لأن القاآن كيوك، باعتباره أقوىٰ ملوك الأرض آنذاك، طلب من البابا وملوك أوروبا الغربية أن يعترفوا بسلطته العليا عليهم.

ولم ييأس البابا، فأرسل وفداً ثانياً برئاسة الراهب الدومنيكاني (أسكين اللومباردي) ليقابل قائد المغول العسكري في تبريز (إيران). وقد وصل الوفد في مايو ١٢٤٧م، وبحث مع القائد المغولي بايجو إمكانية التحالف العسكري ضد المسلمين، وبالذات ضد الأيوبيين الذين كانوا يحكمون سوريا وفلسطين ومصر في ذلك الوقت، والذين خاضوا الحروب الصليبية وانتصر فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي وحرَّر منهم بيت المقدس.

وقد أرسل كيوك وفداً إلىٰ الملك لويس التاسع الصليبي (ملك فرنسا) لإيجاد فكرة التحالف المسيحي ـ المغولي ضد المسلمين. وقد وصل الوفد إلىٰ قبرص ـ حيث كان لويس التاسع ـ سنةَ ١٢٤٨م. وقد حرص الوفد المغولي علىٰ ذكر أن والدة كيوك نصرانية، وأنه تربىٰ علىٰ يد نصراني، وأن وزيره نصراني، وأن كيوك نفسه قد اعتنق النصرانية ومعه ١٨ من أمراء البيت المالك.. وأنهم سينتقمون من الخوارزميين الذين أساؤوا إلىٰ المسيحيين. وقد رجوا الملك لويس أن لا يفرّق في المعاملة بين الكاثوليك والنساطرة واليعاقبة، فالجميع يجلّون الصليب ويتمتعون بالمساواة لدينا.

وقد رفض لويس التاسع الكاثوليكي المتعصّب فكرة التسامح مع المذاهب النصرانية الأخرىٰ. وقد ورد في رسائل البابا أن كنيسة روما سترحّب بالمغول المسيحيين كأبناء بررة شريطة أن يتبعوا العقيدة الكاثوليكية، ويعترفوا بكنيسة روما أمّاً لجميع الكنائس، وبالبابا نائباً عن المسيح تلزم طاعته ممن يعتبرون أنفسهم نصارىٰ. وقد انتهىٰ هذا المشروع بالفشل بسبب موت كيوك المفاجئ.

وفي عهد مونكو أيضاً قوي الاتصال بين المسيحيين في أوروبا والمغول في آسيا. وكان المسيحيون مستعدين لأن يتغاضوا عن الإبادة التي قام بها المغول في روسيا وبولندا في سبيل تحطيم قوة المسلمين والقضاء عليهم نهائياً.

وقد أوفد الملك لويس التاسع ملك فرنسا بعثةً إلىٰ مونكو (الخان الأعظم للمغول) برئاسة كاهن يُدعىٰ وليم روبرك، الذي رحل من عكّا سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، ووصل إلىٰ قره قوم سنةَ ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م.

وكان مونكو ـ كما أسلفنا ـ رجلاً حازماً قوياً، وقد احسن معاملة رعاياه من جميع الأديان، ولكنه غضب من رسائل البابا التي تدعوه لأن يكون تابعاً للبابا، ورد علىٰ ذلك بأن طلب من البابا وجميع ملوك أوروبا أن يكونوا تابعين له.

ويقول بارتولد إن مونكو لم يغضب فقط من تلك الرسائل، بل وصف الملكة أوغل غايميش التي استقبلت وفد لويس التاسع بالعطف الشديد، بأنها لا تعرف شيئاً في شؤون السلم والحرب، ومصالح الدولة، وأنها امرأة شريرة وأسوأ من كلبه[١].

وقد وصل الكاهن روبرك رئيس وفد لويس التاسع إلىٰ عاصمة الإمبراطورية المغولية في نهاية ديسمبر ١٢٥٣م، ومَثُلَ بين يدي القاآن مونكو في ٤ يناير ١٢٥٤م. وقد وجد روبرك أن الإمبراطورية المغولية قد عزمت علىٰ مهاجمة المسلمين في إيران، حيث الإسماعيلية الذين لم يستلسموا بعد للحكمِ المغولي ودارِ الخلافة العباسية في بغداد.

ولكن روبرك أدرك أنّ القاآن الأعظم يرىٰ أن دول العالم كلها بما فيها دول أوروبا الغربية يجب أن تعترف بسيادة المغول عليها. وهذا أمرٌ كان خارج نطاق البحث بالنسبة للوفد برئاسة روبرك، وهو قد جاء فقط لإيجاد تحالف ضد المسلمين، فوجد القاآن يجهّز لحملةٍ ضدهم دون مساعدة أوروبا.

---

(١) بارتولد: «التركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغولي» ص٦٩٦.

وكما سبق كانت سياسة مونكو الخارجية تتمثل في الآتي: «يجب أن يكون جميع أصدقائه أتباعاً له، أما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم أو إخضاعهم حتىٰ يكونوا أتباعاً له». وقد غادر روبرك (قره قوم) في أغسطس سنة ١٢٥٤م حتىٰ وصل إلىٰ لويس التاسع الذي كان في عكا.

وقد قام ملك الأرمن بإعلان خضوعه للمغول، فأبقوه علىٰ عرشه، وساعدوه في استرداد بعض المناطق التي كان قد استولىٰ عليها السلاجقة المسلمون. ولقيَ ملك الأرمن استقبالاً حافلاً عند قدومه إلىٰ قره قوم في سبتمبر ١٢٥٤م. وعاد ملك الأرمن هيتوم من عند القاآن مونكو محمَّلاً بالهدايا، وبالوعود بالقضاء علىٰ من بقي من السلاجقة المسلمين، كما وعده القاآن بأن يُعفي الكنائس والأديره المسيحية من جميع الضرائب. وشارك الأرمنُ مشاركةً فعالةً في الهجوم علىٰ بغداد وتدميرها. وكانوا لا يقلّون عن المغول حقداً ودماراً علىٰ هذه المدينة العظيمة التي واجهت أبشع ما واجهته مدينةٌ في تاريخها. وتكالب عليها المغول والأرمن المسيحيون، مع خياناتِ الشيعةِ وتخاذُلِ الخليفة وانغماسِه في اللهو واكتنازه للمال والذهب بدل إنفاقه في الجيوش والدفاع عن البلد. وكان ضعف الخليفة العباسي، وسوء تدبيره، ومراسلة سلفه لجنكيزخان ليقضي علىٰ الدولة الخوارزمية المسلمة؛ من أسباب هلاك المسلمين وتدمير عاصمتهم وزوال ملكهم.

وكان لانتصار هولاكو على المسلمين وتدميره لعاصمة الخلافة بغداد وقعٌ حسنٌ عند المسيحيين الذين اعتبروا ذلك عيداً.

وابتهج المسيحيون في كل مكان، وهللوا لهولاكو وزوجته المسيحية دوقوز خاتون، واعتبروهما قسطنطين وهيلينا، وأنهما ليسا إلاَّ أدوات الله

للانتقام من أعداء المسيح[١]. وكان في جيش هولاكو وبلاطه عددٌ من المسيحيين، فبالإضافة إلىٰ زوجته دوقوز خاتون كان قائد جيشه كيتوبغا نصرانياً، كما كان البلاط يعج بالنساطرة. . وقد تراءىٰ غزو بغداد وكأنه حملة صليبية نسطورية. وقد اختار هولاكو البطريرك النسطوري (ماكيكا) ليكون رسوله إلىٰ المستعصم العباسي. وكان الكرَجَ والأرمن هم أول من اقتحم أسوار بغداد واشتهروا بشدتهم وقسوتهم في ذبح المسلمين وتخريب بغداد[٢]. وقد تحول أباقا ابن هولاكو إلىٰ النصرانية، ولمّا تحول تكودار الابن الثاني لهولاكو إلىٰ الإسلام قتله أرغون بن أباقا (ابن أخيه) مع ثلة من الجيش المغولي.

ولمّا فرغ هولاكو من تدمير بغداد، عاصمة الخلافة الإسلامية، توجه إلىٰ سوريا، فقام الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق بإرسال ابنه العزيز إلىٰ هولاكو يحمل إليه الهدايا والتحف، وأعلن خضوعه التام لهولاكو الذي أصرّ علىٰ أن يحضر الناصر يوسف بنفسه لتقديم الولاء والتبعية لهولاكو، ففعل.

وانضم ملك أرمينية هيتوم وبوهيمند ملك أنطاكية الصليبي إلىٰ هولاكو، لتدمير المسلمين واستعادة بيت المقدس، وقد تقدم البطريق الأرمني ليمنح البركة لهولاكو الذي بعثته السماء ليدمر المسلمين ويعيد بيت المقدس[٣].

وتم تدمير ميافارقين بديار بكر (في تركيا حالياً شمال سوريا) بعد مقاومةٍ باسلة حتىٰ نفد الزاد وعمّت المجاعة. وقاومت ماردين مقاومةً بطولية، ثم

---

(١) د. فؤاد الصياد: «المغول في التاريخ» (١ : ٢٨٢)، نقلاً عن رنسيمان: «تاريخ الحروب الصليبية» (الترجمة العربية) (٣: ٥٢٢).

(٢) المصدر السابق، عن رنسيمان: (٣: ٥٢٣).

(٣) المصدر السابق (١ : ٢٩١، ٢٩٢)، نقلاً عن جروسيت: «الإمبراطورية عبر الإستيبس» (بالفرنسية) ص٤٣٤ .

استسلمت، وسقطت مدن سوريا واحدةً إثر أخرىٰ. وكان رئيس أساقفة حلب المؤرِّخ ابن العبري النصراني سعيداً باقتراب المغول وفرار السلطان الناصر، فقدم ولاءه وطاعته وتبريكاته لهولاكو. ورغم ذلك قاومت المدينة الجيش المغولي العرمرم ومعه جيوش الأرمن والكرج النصرانية، واستبيحت المدينة وتم تدميرها.

وتقدّم المغول إلىٰ دمشق، وكان حاكمها قد فرّ، فاستسلم الأهالي دون قتال. وعلىٰ إثر ذلك انتقم المسيحيون في دمشق من المسلمين وأذلّوهم، وكانوا يحملون الصلبان في الشوارع ويرشون الخمر علىٰ المسلمين. ودقّوا النواقيس، وصبُّوا الخمور في الجامع الأموي، وأظهروا عداوتهم التامة للإسلام والمسلمين.

واستسلمت بقية المناطق بقتال وبدون قتال، مع ابتهاج النصارىٰ في كل مكان. ويقول رنسيمان في كتابه «الحروب الصليبية»[١]: بسقوط المدن الثلاثة الكبيرة: بغداد وحلب ودمشق، تراءىٰ كأن الإسلام في غرب آسيا قد حان أجله. ففي دمشق، وفي سائر الجهات في غرب آسيا، لم يكن للفتح المغولي من معنىً سوىٰ انتعاش المسيحيين المحليين. وإذا كان كيتوبغا (قائد الجيوش المغولية) نفسه مسيحياً، ولم يُخف عواطفه المسيحية، فأضحىٰ المسلمون بداخل سورية لأول مرة منذ القرن السابع الميلادي، يُعتبَرون أقليةً مغلوبةً علىٰ أمرها. وأخذ المسيحيون يتحرقون للانتقام من الإسلام والمسلمين في كل مكان.

وقد أيد ملوك أرمينية والكَرَج وأنطاكيا هولاكو، وشاركوا معه في القتال ضد المسلمين، بينما لم يبد بقية الحكام الصغار من الصليبيين في سوريا

---

(١) الصياد: «المغول في التاريخ» ص٢٩٧، نقلاً عن رنسيمان: «الحروب الصليبية» (٣: ٥٢٨).

وفلسطين نفسَ الحماسة؛ لإدراكهم أنّ المغول سيتحولون إلىٰ الأسياد الجدد، وربما كانوا أقسىٰ بكثير مما كانوا يرونه من المسلمين[1].

وقد أنقذ الله المسلمين من هذا الغزو المغولي المدمِّر الذي استعد للهجوم على مصر، وتدمير ما بقي من قوة المسلمين.

وتمثل ذلك الإنقاذ الرباني بالآتي:

(١) موت القاآن مونكو (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، وحدوث خلاف شديد في ولاية العرش كما هو معتاد. وكان الخلاف بين أخوَي مونكو؛ حيث رشح عدد من الأمراء (أريق بوكا) للحكم، ومنهم بركه خان، بينما رفض قوبلاي ذلك، وطالب بالعرش لنفسه. وكان هولاكو يرىٰ أن أخاه قوبلاي هو الأجدر بالحكم، فذهب بجيشه كله ليدعم قوبلاي وليحضر القوريلتاي (مجلس الشورىٰ الأعلىٰ لاختيار القاآن).

(٢) اعتناق بركه خان للإسلام ومحاربته لهولاكو من أجله.

(٣) ثورة أبناء جغتاي في مناطقهم ومحاربتهم لأبناء تولي.

فلمّا انسحب الجيش العرمرم ـ ويقدَّرون بأربعمئة ألف ـ مع هولاكو للعودة إلىٰ إيران والتركستان ارتفعت معنويات المسلمين في مصر، واستعدوا للقاء المغول.

كما أن انسحاب المغول قد أدىٰ إلىٰ فتور الحماس المسيحي، وخاصة الإمارات الصغيرة الموجودة في فلسطين، فسالمت قواتِ قطز وبيبرس، بل وأعلن بعضهم استعدادهم للقتال مع المسلمين ضد المغول. ولكن بيبرس شكرهم علىٰ ذلك، وطلب منهم أن يقفوا فقط علىٰ الحياد.

---

(١) المصدر السابق: «الصياد» (١ : ٢٩٩).

وقد استعدَّ قطز استعداداً حسناً، وأرسل العيون، وراسل الأمراء من البيت الأيوبي الموجودين في سوريا، وبذل لهم كل ما يريدون بما في ذلك عودتهم لحكم مصر، فتشجّع هؤلاء، وأرسل جيشه، وبث العيون والأرصاد، ودخل الحرب عازماً علىٰ الجهاد حتىٰ النصر أو الشهادة، فرزقه الله النصر المبين في المعركة الخالدة «عين جالوت» التي تمت في ١٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م. وقد أبدىٰ كتبغا قائد المغول ضروباً من الشجاعة حتىٰ أسر ثم قتل. وكان بذلك نهاية المد المغولي، وبداية انتشار الإسلام في أورد هولاكو.

وتحررت مصر والشام (سوريا الكبرىٰ) من المغول، وانتقم الأهالي من نصارىٰ دمشق وغيرها الذين مالؤوا المغول وأذلوا المسلمين. ولكن حكام المسلمين منعوهم من التمادي في ذلك، وأعادوا الأمور إلىٰ نصابها.

وفي زمن مونكو ضعف أمر بيت جغتاي، وتولت أورقنه خاتون (أوركينا خاتون) الحكم في بيت جغتاي باسم ابنها مباركشاه، الطفل الذي كان ـ حسب قول بارتولد ودائرة المعارف الإسلامية ـ أول من أسلم من أمراء المغول[١]. ورغم أنها كانت بوذية إلّا أنها بسطت حمايتها للمسلمين.

وفي عام ١٢٦٤م مات (أُلغا)، وأجلست أورقنه خاتون ابنها مباركشاه علىٰ عرش آل جغتاي. وقد أدىٰ ذلك إلىٰ تأجج الصراع بين من اتّبعوا الإسلام من أمراء المغول وبين من تنصّروا أو تحولوا إلىٰ البوذية أو بقوا على ديانتهم الشامانية.

---

(١) بارتولد: «التركستان» ص٦٩٠ «دائرة المعارف الإسلامية» (٣: ٤٨٩).

فقد كان سرتاق بن باتو بن جوجي مسيحياً، وقد جعله العبري شماساً (قِسّيساً)، ويورد ورتان أنه أَدخل في العقيدة المسيحية جماعاتٍ من شعبه[1]. ولكن روبرك الذي زار سرتاق سنة ١٢٥٣م قال إنه يعطف على المسيحيين ولكنه ليس مسيحياً. وكان لسرتاق ست زوجات في آنٍ واحد.

ويؤكد الجوزجاني أن سرتاق تحوّل إلى النصرانية، وأن كان ضد عمه بركه خان بن جوجي الذي أعلن إسلامه وقال له: «أنت مسلم وأنا نصراني، وإني لأتطيّر برؤية وجه مسلم!». ومات سرتاق بعد ذلك بقليل. ويرى كيراكوس أن سرتاق قد سمَّه أقاربه المسلمون غضباً لإهانته بركه خان.

وبعد موت سرتاق جعل أمراء بيت جوجي (الأورد الذهبي) أرملة باتو المدعوة بُراقچين خاتون (Boraqchin) حاكمةً على هذا البيت وأراضيهم. وعيَّنوا طفلاً هو أولاغجي (Ulagchi) ابن باتو رئيساً للأورد، ولكنه مات في نفس العام (١٢٥٧م)، فتولى بركه خان أمر الأورد الذهبي. وبموت مونكو القاآن في نفس العام (١٢٥٧م) توطدت مكانة بركه خان على الأورد الذهبي، ولعب دوراً كبيراً في البيت المغولي، وبدأ نفوذ النصارى في الانحسار، كما بدأ صعود النفوذ الإسلامي لدى المغول.

قوبلاي خان (٦٥٨-٦٩٣هـ/ ١٢٦٠-١٢٩٤م):

تولى قوبلاي الأخ الأوسط لمونكو بن تولي أمورَ الصين، وأكمل فتحها في حياة أخيه، وضبط أمورها وإدارتها. ولما مات مونكو سنة ١٢٥٩م أعلن أهل منغوليا أريغ بوكا (الأخ الأصغر لمونكو) قاآناً (خاناً) أعظم، ولكن

---

(١) بارتولد، ص٦٩٢.

قوبلاي رفض قبول هذا القرار، وعقد مجلساً خاصاً (قوريلتاي) في مدينة «كي ينج شو» الصينية (شمال الصين)، وأعلن خلع أخيه ونصّب نفسه إمبراطوراً على المغول. وكان قوبلاي متأثراً بالصينيين، واعتنق البوذية، وحارب أخاه وتغلب عليه سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، وزجّ به في السجن، فمات أخوه بعد سنتين (أي سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م)، وبذلك خلصت لقوبلاي العاصمة قراقوم.

واستطاع قوبلاي أن يوحِّد الصين بأكملها تحت حكمه، كما حكم كوريا والهند الصينية والتبت والهند إلىٰ حدود نهر الكنج، وآسيا الصغرىٰ والقرم وجزءاً من روسيا وإيران.

واهتم قوبلاي بإصلاح الزراعة والصناعة، ونظّم البريد تنظيماً دقيقاً، وعمل في بلاطه عددٌ كبير من المهَرَة في الصناعة والإداريين الأَكْفاء من كافة الأمم من الصين، وأوروبا، والأويغور، وإيران. وقد احتل الإيرانيون مكانةً خاصةً في بلاط قوبلاي، وكان منهم أرباب الحرف والمستشارون وأرباب الصناعة، وتولىٰ بعد وفاة محمود يلواج رجلٌ إيرانيٌّ الوزارةَ، وكان يلقب بالسيد الأجل البخاري، وولىٰ ابنه ناصر الدين نائباً عنه في حكم ولاية قراچانك، وقد ظل السيد الأجل البخاري في الوزارة خمسةً وعشرين عاماً (٦٥٨-٦٨٣هـ/ ١٢٥٩-١٢٨٤م)، وقام بها علىٰ خير وجه حتىٰ مات.

وفي عهد هذا الوزير جرىٰ نظام التعامل في الصين بالنقود الورقية المعروفة بالجاو، وطوال الفترة التي وزر فيها ظل التعامل بهذا النوع من العملة دقيقاً محكماً، وأمكن تنظيم الدخل والخرج للمملكة كلها. وكانت العملة الورقية مدعومة بالذهب والفضة.

وتولىٰ بعد السيد الأجل رجلٌ إيرانيٌّ آخر هو أحمد البناكتي، ولكنه لم يكن بكفاءة السيد الأجل وأمانته. . وكان ابن قوبلاي (چيم كيم) يكرهه، كما أن رجلاً من الخطأ تولى الوزارةَ معه، دبّر له المكايد واغتاله. فأمر قوبلاي بجنازة حافلة لأحمد البناكتي، وقضىٰ علىٰ أعدائه من الخطا. ولكن تبيّن لقوبلاي فيما بعد أن أحمد البناكتي خان الأمانة، وأخفىٰ الجواهر الثمينة في منزله، فغضب قوبلاي وأمر بإخراج جثته وصلبها ثم إحراقها، ثم أسند قوبلاي الوزارة إلىٰ رجل من الأويغور اسمه سنكه، وكان متضامناً مع المسيحيين في الكيد للمسلمين والإيقاع بهم. وبسبب خيانة أحمد البناكتي للأمانة تضرر المسلمون ضرراً بالغاً.

وبسبب إصدار العملة الورقية «الجاو» بدون غطاءٍ (ذهبي وفضي) كافٍ في عهد أحمد البناكتي وعهد سنكه أنخفضت العملة انخفاضاً شديداً في عهد خلفاء قوبلاي، وأدىٰ ذلك إلىٰ ثورة شعبية عارمة في الصين سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م أدت إلىٰ القضاء علىٰ إمبراطورية المغول في الصين بعد عشر سنوات من اندلاعها أي بعد سنة من وفاة قوبلاي.

وبصورة عامة فإن عهد قوبلاي الطويل (حكم لمدة ٣٤ عاماً) وطّد الإمبراطورية المغولية، وخاصة في الصين وشرق آسيا. ولكن عهده شهد استقلالية ألوس جوجي (الأورد الذهبي) بقيادة بركه خان، ثم بعد ذلك استقلالية ألوس جغتاي.

وكان قوبلاي متأثراً إلىٰ حد كبير بالثقافة الصينية، حتىٰ عُدَّ أحد أباطرة الصين. ولم يكن قوبلاي متعصباً ضد أيٍّ من الأديان رغم أنه اعتنق البوذية، فقد سمح للمسلمين أن يتولوا المناصب الهامة، ولكن خيانة أحمد البناكتي أضرّت بالمسلمين ضرراً بالغاً.

Suudi Arabistan Türkleri derneği

جمعية أتراك السعودية

Amro Turan



الفصل الثامن

الوزراء المسلمون الذين تولوا شؤون الدولة في عهد جنكيزخان وأولاده

(١) **محمود يلواج الخوارزمي**: وهو أهم شخصية إسلامية في عهد جنكيزخان وأبنائه، وقد تولىٰ السفارة لجنكيزخان عدة مرات، ومنها سفارته إلىٰ السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي (سلطان الدولة الخوارزمية)، ثم تولىٰ الوزارة في عهد أوكداي، وقد أسلفنا في شرح دوره الهام في الحفاظ علىٰ المسلمين وإنقاذهم من الدمار، وإعادة بناء بخارىٰ وخوارزم وخجنده وترمذ وسمرقند. . إلخ وتوفي سنة ٦٥٢هـ.

(٢) **مسعود بيك بن محمود يلواج الخوارزمي**: وتولىٰ الوزارة عندما تحول والده إلىٰ حكم الصين وتنظيم شؤونها، فتولىٰ جميع بلاد ما وراء النهر (جيحون) وبلاد التركستان وخراسان والخطا. . إلخ وقد أحسن الإدارة، ونفع الله به الإسلام والمسلمين، وتوفي سنة ٦٨٨هـ.

(٣) **أبو بكر (مسعود الثاني) ابن يلواج**: وتولىٰ الوزراء من سنة ٦٨٩هـ إلىٰ حين وفاته سنة ٦٩٧هـ.

(٤) **ستلمش (مسعود الثالث) ابن مسعود يلواج**: تولىٰ الوزارة بعد وفاة أخيه، وتوفي سنة ٧٠٢هـ.

(٥) **سيوتج (مسعود الرابع) ابن مسعود يلواج**: وتولىٰ الوزارة بعد وفاة أخيه ستلمش.

(٦) **قطب الدين حبش عميد**: التحق بخدمة المغول منذ أيام فتحهم لبلاد ما وراء النهر، وترقىٰ في خدمة جغتاي، وبلغ عنده مكانة كبيرة حتىٰ صار وزيره.. ولكن لم تُعرف لحبش عميد غيرةٌ خاصةٌ علىٰ الإسلام، ولم يدافع عن المسلمين، حتىٰ إن العالم الداعية إلىٰ الله الصوفي سيف الدين باخرزي بعث له رسالةً يوبخه علىٰ تقصيره في خدمة المسلمين، وفيها يقول: «بما إن رب العزة قد أوكل إليك في هذه الدولة أن تنصُر الحقّ فماذا سيكون عذرك يوم الحشر إذا أنت لم تقم بذلك؟! وفي ملتنا الإسلامية ـ نَصَرَها الباري إلىٰ يوم الدين ـ شروطُ الرياسة ثلاثة: هي العلم والسن والإسلام، فإذا أراد شابٌّ لا خبرةَ له ولا علم أن يتولىٰ الرياسة، فإنه في نظر العقلاء لا يعيب المسنين أن يحرموا منها...». وقد أغلظ الشيخ باخرزي رحمه الله له القول[١].

ثم وزر لقرا هولاكو حفيد جغتاي.

(٧) **بهاء الدين مرغيناني**: وكان من أسرة دينية تولت مشيخة الإسلام في فرغانة. وكان هو عالماً فاضلاً. تولىٰ الوزارة في عهد ييسو مونكو (مونككا) ابن جغتاي، فلما مات عاد الأمر إلىٰ قراهولاكو، وتولىٰ الوزارة حبش عميد الذي بطش ببهاء الدين مرغيناني الذي أنقذه من بطش ييسو مونكو، وجازاه جزاء سِنِمّار!

(٨) **السيّد الأجل البخاري**: أصله من إيران، تولىٰ الوزارة في الصين بعد وفاة محمود يلواج من سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م. وظل في الوزارة خمسةً وعشرين عاماً حتىٰ سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، وكلها في عهد قوبلاي خان الذي

(١) الجويني (علاء الدين عطا ملك): «تاريخ جهانكشاي» (١ : ١٩٧).

امتد حكمه من سنة ٦٥٨ إلىٰ سنة (٦٩٣هـ/ ١٢٦٠-١٢٩٤م)، وقد قام بالوزارة علىٰ خير وجه، وقام بتنظيم الدولة تنظيماً دقيقاً. وفي عهده تم التعامل بالعملة الورقية المعروفة بالجاو التي كانت مغطاةً بالذهب والفضة.

وقد تولىٰ ابن السيد الأجل ناصر الدين حكم ولاية قراچانك نائباً عن والده.

(٩) **أحمد البناكتي**: وهو أيضاً إيراني، تولىٰ الوزارة بعد السيد الأجل، ولكنه ـ للأسف ـ لم يكن في كفاءة السيد الأجل البخاري ذي السمعة الحسنة، ولا أمانته. وقد كان قوبلاي القاآن يثق في أحمد البناكتي، ولكن ابن القاآن (چيم كير) دبَّر له المكايد واغتاله، فأمر القاآن قوبلاي بتكريمه ميتاً، وأقام له جنازةً كبيرة. وعندما بحث القاآن عن جوهرة ثمينة جداً كانت في خزانة الدولة وجدها في بيت وزيره أحمد البناكتي الذي سرقها، فأدىٰ ذلك إلىٰ غضب القاآن وإخراج الجثة وصلبها.

وولىٰ بعدها القاآن قوبلاي منصبَ الوزارة لرجلٍ من الأويغور اسمه سنكه، وكان متضامناً مع البوذيين والمسيحيين في إيذاء المسلمين.

وهكذا نرىٰ الوزراء الأكفاء الأمناء يخدمون الإسلام والمسلمين، والوزراء الخونة من المسلمين ينتهي بهم الأمر إلىٰ الإهانة أحياءً وأمواتاً، وإلىٰ تكريس الأذىٰ للمسلمين.

(١٠) **سيف الدين البتكجي**: كان أحد وزراء هولاكو، ويبدو أنه من الشيعة؛ لأنه طلب من هولاكو أن يرسل مئةً من الجنود المغول إلىٰ النجف لحماية قبر الإمام علي كرم الله وجهه.

(١١) **الخواجه نصير الدين الطوسي**: أحد رجال هولاكو وأحد العلماء في الفلسفة والفلك. وقد بنىٰ له هولاكو مرصد فرغانه، وكان في خدمة هولاكو، عدواً للسنة بسبب تشيّعه وتعصبه لمذهبه.

(١٢) **عطا ملك الجويني**[١]: الذي اشتهر بكتابه «تاريخ جهانكشاي»، وفيه تأريخٌ لدولة جنكيزخان وأولاده وأحفاده. وقد كان هو ممن عرفوا هذه الدولة معرفةً وثيقة، ووزر لهولاكو وأولاده، ولذا فإنه حين يتكلم عن المغول يتكلم عن خبرة مباشِرة ومعرفة وثيقة.

ويعتبر علاء الدين عطا ملك الجويني أول من ألف في تاريخ المغول، وتبعه بعد ذلك رشيد الدين فضل الله صاحب كتاب «جامع التواريخ»، ثم عبد الله بن فضل الله الشيرازي المشهور باسم (وصّاف الحضرة)، وكتابُه: «تجزية الأمصار وتزجية الآثار» المعروف باسم «تاريخ وصّاف».

وتقول بعض المصادر: إن جد آل جويني كيسان المكنىٰ أبا فروة كان مولىً للخليفة الراشد عثمان بن عفان رضيَ الله عنه. كما ينسبهم بعض الكتّاب إلىٰ إمام الحرمين عبد الملك الجويني. وقد تولىٰ جدُّ عطا ملك منصباً هاماً لدىٰ علاء الدين محمد شاه خوارزم. وقد صحبه حين هرب من وجه المغول من بلخ إلىٰ نيسابور عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، ثم خدم بعده ابنه جلال الدين منكبرتي.

ولكنّ بهاء الدين محمد بن محمد الجويني والد عطا ملك خدم المغول. وفي عهد جنتمور حاكم خراسان المغولي صار مستوفياً (أي جامعاً للضرائب) لخراسان ومازندران. وفي عام ٦٣٣هـ أوفده جنتمور برسالة منه إلىٰ الخان الأكبر أوكداي. وكان بهاء الدين ينوب عن هؤلاء الأمراء المغول في الحكم حين كانوا يقصدون مقر الخان الأعظم (القاآن).

---

(١) د. أحمد محمود الساداتي: «تاريخ جهانكشاي لعطا ملك الجويني» (٧:١١٨)، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر.

ولد علاء الدين عطا ملك الجويني عام ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، في الفترة التي حطم فيها جنكيزخان الدولة الخوارزمية. وقد التحق بخدمة الأمير أرغون المغولي (وهو غير أرغون بن أباقا بن هولاكو) الذي كان يحكم باسم الخان العظيم منطقة خراسان ومازندران وكرمان وأذربيجان. وصحب هذا الأمير في رحلاته إلىٰ قراقوم مقر الخان الأعظم.

وحين قدم هولاكو إلىٰ إيران لمحاربة الإسماعيلية أرسله أرغون هذا مع الأمير أحمد بتكجي وابن أرغون ليكونوا جميعاً في خدمة هولاكو.

وقد صحب عطا ملك هولاكو في حربه للإسماعيلية، وكان أحد كتّابه، وهو الذي حمل شروط التسليم إلىٰ ركنْ الدين خورشاه (رئيس الإسماعيلية آنذاك).

وقد عمل عطا ملك علىٰ إنقاذ جزء كبير من المكتبة الحافلة التي كانت في القلعة وخاصة سيرة حسن الصبّاح ومن جاء بعده من حكّام الإسماعيلية، وضمّنها في كتابه «تاريخ جهانكشاي»، في الجزء الثالث. كما أخذ ما وجده من آلات الفلك والأسفار.

وصحب علاء الدين عطا ملك الجويني هولاكو في غزوه لبغداد، وكان معهم نصير الدين الطوسي العالم الفلكي الشيعي الذي كان يحقد علىٰ الخليفة العباسي.

وبما أن عطا ملك كان حصيفاً فإنه استطاع أن يجد الحظوة عند هولاكو الذي ولاه أمر بغداد، بعد أن هلك الوزير ابن العلقمي الذي لم يلبث في الحكم إلاّ بضعة أشهر مات بعدها من الكَمَد؛ لما لاقاه من المهانة علىٰ يد هولاكو.

وقد جهد عطا ملك في عهد هولاكو ثم في عهد ابنه أباقا (النصراني) في إصلاح الأراضي الزراعية وتعميرها في العراق، وتخفيف الخراج عن الفلاحين. وأقام بالنجف رباطاً للعلم وللفقهاء رغم أنه كان سنيّاً ولم يكن شيعياً.

وقد خفَّفَ عطا ملك بحسن إدارته عن بغداد والعراق ما أصابها من نكبات وويلات بعد الغزو المغولي المرعب المدمر، حتىٰ قال عنه الذهبي في كتابه «تاريخ الإسلام»: «كان علاء الدين وأخوه فيهما كرمٌ وسؤدد، وخبرةٌ بالأمور، وفيهما عدلٌ ورفقٌ بالرعية، وعمارة للبلاد. وليَ علاء الدين نظر العراق سنة نيفٍ وستين بعد العماد القزويني، فأخذ في عمارة القرىٰ، وأسقط عن الفلاحين مغارم كثيرة إلىٰ أن تضاعف دخل العراق وعُمِّرَ سوادها، وحفر نهراً من الفرات مبدؤه الأنبار ومنتهاه إلىٰ مشهد (الإمام) علي رضي الله عنه، وأنشأ عليه مئةً وخمسين قرية».

وظل عطا ملك يحكم بغداد لأربعةٍ وعشرين عاماً، منها ستة في عهد هولاكو، وسبعة عشر أيامَ ابنه أباقا (النصراني)، وعامٌ واحدٌ زمنَ حفيده (أي حفيد هولاكو) أحمد تكودري (تكودار) الذي كان أول من أسلم من نسل هولاكو.

وتوفي عطا ملك الجويني عام ٦٨١هـ/ ١٢٨٣م في عهد أحمد تكودري، ودفن بتبريز (في إيران).

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع

ذكر من أسلم من أحفاد جنكيزخان

(١) **بركه خان بن جوجي بن جنكيزخان:** وقد سبق الكلام عنه وافياً.

(٢) **مباركشاه حفيد جغتاي:** وكان أول من أسلم من بيت جغتاي، وتولىٰ الحكم سنة ١٢٦٤م، وقد سبق عنه الحديث باقتضاب.

(٣) **إيلخانية فارس:** كان أول من أسلم هو أحمد تيكودار (تِكودَر) بن هولاكو بن تولي بن جنكيزخان.

حكم فارس من سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م إلىٰ سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، وتقول «دائرة المعارف الإسلامية»[(١)]: إنه قد عُمِّدَ في شبابه وأطلق عليه اسم نيقولاس ولكنها تُشكِّكُ في هذه الرواية. وقد دخل الإسلام عقب اعتلائه العرش مباشرة، وكان بلاط هولاكو وأبناؤه لا يزالون معادين للإسلام، فأباقا الابن الأكبر لهولاكو كان قد تنصَّر، وتولىٰ الحكم بعد أبيه هولاكو. وكان بقية بيت هولاكو والأمراء إما شامانيين أو نصارىٰ أو بوذيين، وجميعهم يكرهون الإسلام.

ويقول ابن العبري النصراني: إن تكودر كان متسامحاً مع جميع الأديان، وخاصة النصرانية، بينما تقول مصادر أخرىٰ إنه حَوّلَ المعابد الوثنية والكنائس إلىٰ مساجد[(٢)]. وكان إسلامه أساساً لمفاوضاته مع مصر، وإيجاد روابط

---

(١) «دائرة المعارف الإسلامية» (٥: ٤٤٣-٤٤٤).

(٢) المصدر السابق.

ودية بين الدولتين. وقد قام أرغون بن أباقا بن هولاكو (ابن أخ تكودر) بالثورة علىٰ عمه بسبب إسلامه، وذلك سنةَ ١٢٨٤م. ولكن قائد أحمد تكودر هزمه، فاضطر للتسليم في قلعة قلات، وأُحضر إلىٰ معسكر عمه، بَيْدَ أن الأمير بوكاي أطلق سراحه، وسرعان ما انضمت جنود بوكاي، وجنود أحمد تكودر نفسه الذين نقموا عليه إسلامه، فانهزم أحمد تكودر، وسلم نفسه لابن أخيه المتعصِّب الذي أمر بقتله، وذلك في ٢٦ جمادىٰ الأولىٰ ٦٨٣هـ/ ١٠ أغسطس ١٢٨٤م. وفي اليوم ذاته احتفل أرغون باعتلائه العرش، وثبَّته بعد ذلك (١٢٨٦م) القاآن قوبلاي[١].

وتولىٰ الوزارة اليهودي الملقب بسعد الدين الذي سارع إلىٰ إيذاء المسلمين، كما أنه لم يكن محبوباً لدىٰ شيوخ المغول وأمراء دولة أرغون، فلما مرض أرغون مرضَ موته انقض عليه هؤلاء وقتلوه.

وكان أرغون بوذياً ولكنه علىٰ علاقة وطيدة وحسنة بالنصارىٰ، وراسله البابا وملوك أوروبا لمحاربة المسلمين في مصر وإيجاد حلف ضدهم.

وقد أسلم غازان بن أرغون نفسه وثبَتَ إسلامُه، وفي عهده ثبت الإسلام في إيلخانية فارس، واندحرت البوذية والشامانية والنصرانية. كما أسلم أوليجاتو بن أرغون أيضاً. وهكذا تحولت إيلخانية فارس إلىٰ رحاب الإسلام بفضل الدُّعاة إلىٰ الله من كافة الطبقات، وخاصةً من الصوفية.

وهكذا نجد هولاكو عدواً للإسلام والمسلمين، ثم نجد ابنه الأول أباقا شديدَ العداوة للإسلام والمسلمين (١٢٦٥-١٢٨٢م)، ودمّر بخارىٰ مرةً

---

(١) «دائرة المعارف الإسلامية» (١ : ٦٢٦، ٦٢٧).

أخرىٰ، كما أقام حلفاً صليبياً لمواجهة المماليك في مصر، ولكن المماليك صمدوا وانتصروا علىٰ العدوَّين معاً[١].

ثم ظهر الابن الثاني لهولاكو وهو أحمد تكودر الذي أسلم، واستشهد من أجل إسلامه، فتولىٰ المُلكَ أرغون الحاقد علىٰ الإسلام والمسلمين، ثم تلاه ابنه غازان وابنه أوليجاتو وكلاهما تحوَّل إلىٰ الإسلام. ومنذ ذلك الحين صار الإسلام هو دين إيلخانية فارس. وتحوَّلوا إلىٰ حماةٍ للدين والثقافة الإسلامية، وفي عهودهم قامت مدن جديدة في إيران وحضارة باذخة.

دول إسلامية مغولية:

وقد قامت دول إسلامية باذخة في حوض نهر الڤولجا، والقفجاق، والتركستان، وكان حكامها من أحفاد جنكيزخان، كما قامت دول أخرى تمتُّ بنسب من جهة الأم إلىٰ جنكيزخان مثل الدولة الباذخة التي أسسها تيمورلنك ومن بعده أحفاده حيث أسسوا الدولة التيمورية في الهند. ولا يمكننا دراسة هذه الدول كلها فهو أمر يحتاج إلى مجلدات ضخام وسنكتفي هاهنا بالإشارة السريعة إلىٰ بعض هذه الدول وأهم ما ظهر منها. وسنركز الحديث علىٰ أحفاد جنكيزخان فقط. أما تيمورلنك الذي ينتسب إليه من جهة أمه فلن نتحدث عنه ولا عن أحفاده.

فرع جوجي بن جنكيزخان (الألوسي الذهبي):

قام هذا الفرع من زمن باتو وبركه خان بإقامة مملكة واسعة شملت روسيا وحوض نهر الڤولجا بأكمله والمناطق المحيطة ببحر قزوين وخاصة

---

(١) المصدر السابق (١ : ١٤، ١٥).

من الشمال والشرق، بينما كانت سواحل بحر قزوين الجنوبية تابعة لفرع هولاكو بن تولي بعد أن أقام فيها إيلخانية فارس.

وكان من هذه الأسرة السلطان محمد أوزبك الذي آل إليه أمرها سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م واستمر في الحكم فترة طويلة حتىٰ عام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م. وقد زاره ابن بطوطة وسجّل ذلك في رحلته المشهورة وقال عنه: «وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن، رفيع المكانة، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمىٰ، مجتهد في جهادهم. وبلاده متسعة ومدنه عظيمة منها الكفا والقرم والماجر وأراق وسرادق وخوارزم وحاضرته السرا وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبار الدنيا وعظماؤها».

ووصف ابن بطوطة في رحلته مدينة السرا (علىٰ ضفاف نهر الفولجا الأوسط) فقال: «مدينة السرا من أحسن المدن، متناهية في الكبر، في بسيط من الأرض، تغصُّ بأهلها كثرة، حسنة الأسواق، متسعة الشوارع. وركبنا يوماً مع بعض كبرائها، وغرضنا التطواف عليها ومعرفة مقدارها، وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال. فصلينا الظهر، وأكلنا طعاماً، فما وصلنا المنزل إلا عند المغرب، ومشينا يوماً في عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين. وفيها ثلاثة عشر مسجداً لإقامة الجمعة، أحدها للشافعية، وأما المساجد الأخرى سوى ذلك فكثير.

وقاضي هذه الحضرة (أي الحاضرة أو العاصمة) بدر الدين الأعرج، من خيار القضاة، وبها من مدرسي الشافعية: الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين اللذكي (اللذكي من الداغستان)، وبها من المالكية: شمس الدين المصري.. وبها زاوية الحاج نظام أضافنا وأكرمنا بها..

«وبها زاويةُ الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمي. رأيته بها، وهو من فضلاء المشايخ، حسن الأخلاق، كريم النفس، شديد التواضع، شديد السطوة علىٰ أهل الدنيا. يأتي إليه السلطان محمد أوزبك زائراً في كل جمعة، فلا يستقبله ولا يقوم إليه. ويقعد السلطان بين يديه، ويكلمه ألطف كلام، ويتواضع له، والشيخ بضد ذلك. وفِعْلُه (أي الشيخ) مع الفقراء والمساكين والواردين خلافُ فِعلِه مع السلطان (الذي هو أحد السلاطين السبعة في الدنيا آنذاك)، فإنه يتواضع لهم، ويكلّمهم بألطف كلام ويكرمهم. وأكرمني جزاه الله خيراً، وبعث إليّ بغلام تركي وشاهدت له بركةً».

نعم، هكذا كان أصحاب الزوايا من مشايخ الصوفية علماء فقهاء أتقياء زهاداً، لا يلتفتون للسلاطين بل السلاطين يجثون علىٰ أبوابهم، ويسمعون تقريعهم وتأنيبهم بكل أدبٍ وخشوع. فلله درّ أولئك العلماء العاملين الذين لا يقبلون من السلاطين العطايا والهبات، ويقفون لهم بالمرصاد يوجهونهم ويعظونهم.. ولله درّ أولئك السلاطين من نسل جنكيزخان الطاغية، يتواضعون لهؤلاء العلماء، مستمعين لتوجيهاتهم؛ بل وتقريعهم في بعض الأحيان، دون أن يشعروا بأي غضاضة. وهم في عدلهم ونزاهتهم يتشبهون بعمر بن عبد العزيز والخلفاء الراشدين.

وفي القرن التاسع الهجري، وبالتحديد في سنة ٨٤٢هـ، تحولت أملاك القبيلة الذهبية إلىٰ عدة دويلات (خانيات) وهي:

(١) خانية استراخان: (في المنطقة شمال بحر قزوين)، حيث مصب نهر الفولجا.

(٢) **خانية قازان:** وكانت تحكم ما يعرف اليوم بجمهورية تتارستان. ولا ينصَّب أميرُ موسكو إلاّ بعد أن يوافق عليه خان قازان.

(٣) **خانية القرم:** وهي جزيرة القرم التي صارت اليوم من أملاك أوكرانيا.

(٤) **إمارة قاسموف التتريه الصغيرة:** أيضاً علىٰ ضفاف نهر الڤولجا.

(٥) **الشيبانيون:** وقد أسس الشيبانيون مملكةً كبيرةً في بخارىٰ والتركستان، وهم من فرع استراخان المعروفين بالاسترخانيين. وقد امتدَّ سلطانهم ليشمل معظم بلاد ما وراء النهر (أموداريا ـ جيحون)، وعاشوا جنوب شرقي جبال الأورال المعروفة باليوم في قازاقستان، كما احتلوا الأراضي المعروفة اليوم بجمهورية أوزبكستان، وجعلوا عاصمتهم بخارىٰ، وأنهوا بذلك حكم التيموريين.

واشتهر من هذه الأسرة عدد كبير من الحكام الأقوياء المتمسكين بالشريعة الإسلامية والمدافعين عنها، والمحتضنين للعلماء والدعاة.

وقد استطاع أبو الخير الشيباني أن يوسع مملكته، فاستولى على خوارزم سنة ٨٥١هـ (١٤٤٧م)، وغزا حفيدُه محمد الشيباني أفغانستان وخراسان وضمهما إلىٰ مملكة الشيبانيين، وكان شديداً في صراعه مع الشاه إسماعيل الصفوي الذي كوَّن دولةً شيعيةً قويةً في إيران، حتىٰ إنه قتل في ميدان المعركة بالقرب من مرو سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م.

وظهر فرعٌ آخر من هذه الأسرة في خوارزم (خانية خيوه)، وقد عُرف هذا الفرع باسم عرب شاهيه. . ونما فرع آخر من هذه الأسرة في فرغانه، وأسس خانية خوقند (خجنده). . وهناك فروع أخرىٰ للأسرة وصلت حتىٰ سيبيريا. وفيما ذُكِرَ غنية.

فرع جغتاي بن جنكيزخان:

أول من أسلم من هذا الفرع هو مباركشاه حفيد جغتاي، وتولىٰ الحكم سنة ١٢٦٤م، ثم ظهر من هذا الفرع أسرةٌ حكمت بلاد ما وراء النهر والتركستان، ومن أشهرهم السلطان ترمشرين (طرمشرين) الذي كان أشهر مَن دخل الإسلام. وقد وصف المستشرق فامبري في كتابه «تاريخ بخارىٰ» هذا السلطان فقال: «بعد أن دخل الجغتائيون المتأخرون في الإسلام نجد كتبَ الحديث تَرُوج أيام علاء الدين ترمشرين المغولي، كما نجد هؤلاء الأمراء باعتناقهم الإسلام عن قرب ـ تدفعهم غيرتهم الدينية إلىٰ رعاية هذه الحركة الروحية ـ لا يألون جهداً في ذلك. ولقد رأينا كيف يتقبل أحفاد الفاتح المغولي (جنكيزخان) بكل خضوع زجرَ الشيوخ المحافظين لهم، وتعنيفَهم إياهم بمسجد عام في مواجهة رعاياهم. وهم من بعد ذلك يتولاهم الخجل لما كان قد بدر منهم، ويستغفرون الله لذنوبهم علىٰ مشهدٍ من الملأ جميعاً.

وقد تولىٰ ترمشرين الحكم سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م. وقد وصف ابنُ بطوطةَ في رحلته العجيبة هذا السلطان المتواضع الخاشع فقال: «سلطان ما وراء النهر، وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين، وهو عظيم المقدار، كثير الجيوش والعساكر، ضخم المملكة، شديد القوة، عادل الحكم. ومن فضائل هذا المَلِك أنه حضرت صلاةُ العصر يوماً، ولم يحضر السلطان، فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب، حيث جرت عادته أن يصلي، وقال للإمام حسام الدين الياغي: إن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلاً، ريثما يتوضأ، فقال الإمام: الصلاة لله أم لطرمشيرين؟! ثم

أمر المؤذِّن بإقامة الصلاة، وجاء السلطان وقد صلّىٰ الإمام منها ركعتين، فصلّىٰ السلطان الركعتين الأخريين، حيث انتهىٰ به المقام، وذلك في الموضع الذي تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد، وقضىٰ ما فاته، وقام إلىٰ الإمام ليصافحه وهو يضحك، وجلس قبالة المحراب، والشيخ إلىٰ جانب، وأنا إلىٰ جانب الإمام. فقال لي الإمام: إذا مشيت إلىٰ بلادك فحدِّث أنّ فقيراً من فقراء العجم يفعل هكذا مع سلطان الترك».

«وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة، ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر والظلم، ويُغلظ له القول، والسلطان ينصت لكلامه ويبكي. . . وكان الشيخ لا يقبل من عطاء السلطان شيئاً، ولم يأكل من طعامه قط، ولا لبس من ثيابه».

وقد قام هذا السلطان بإلغاء قوانين جنكيزخان المعروفة بالياسا والتي كان المغول يقدّسونها، فثار عليه جنوده من المغول، وقاموا بعزله، رغم أنهم قد دخل أكثرهم الإسلام.

الإشترخانيون والمنغيت:

وهؤلاء يرجعون إلىٰ بيت قتلق تيمور، وهو أيضاً من فرع جوجي. وقد اشتهر قتلق تيمور باستيلائه علىٰ خوارزم (خيوه) عام ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، وبانتصاره علىٰ البولنديين. وظهر منهم عدد من الحكام المسلمين الأتقياء الذين تنازلوا عن الحكم طواعيةً ليتفرغوا للعبادة والنسك في المدينة المنورة. وممن فعل ذلك قلي خان سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م وعبد العزيز نظرخان الذي آثر العزلة علىٰ محاربة أخيه سبحان قلي.

وكان من فرع المنغيت الذين تولوا الوزارة للإشترخانيين، شابٌّ صالح تقي يُدعىٰ معصوم، لزم النسك وآداب الدين، وزهد في الدنيا حتىٰ لبس الخرقة وسار مع الصوفية، وعُرضت عليه الوزارة فأباها. ولكن عندما حدثت فتنةٌ كبيرةٌ قادها يناز علي بك أمير شهرسبز ألحَّ الناس عليه في تولي الوزارة والقيادة العامة للجيوش؛ لخبرته السابقة بها، فتولاها وأخمد الفتنة. ولكنه لما وجد سلطان بخارىٰ أبا الغازي يتهاون في تنفيذ الشرع رغم النصائح المتكررة عزله سنة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م، وأجمعت الأمة علىٰ توليه السلطة فتولاها.

وقام الأمير معصوم المنغيتي الزاهد العابد المجاهد الذي كان يكتفي بالقليل من الطعام وبثوبٍ واحدٍ خلال العام، قام هذا الأمير بإخضاع بلخ ومرو ومدن أخرىٰ كان يحكمها أمراء متنازعون لا يطبّـقون شرع الله، فقام هذا الأمير الزاهد باحتلالها وتطبيق الشرع والعدل، وقرّب العلماء، وأبعد أصحاب اللهو، وحارب الفساد والخمور، وشدد النكير علىٰ الدولة الصفوية، فحاربها حرباً لا هوادةَ فيها، حتىٰ مات سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م.

ثم تولىٰ بعده ابنه سعيد حيدر توره الذي لُقِّب بالأمير السعيد؛ حيث كان يقضي معظم أيام حكمه ـ التي دامت ٢٣ عاماً في سلام ـ في خلوته لساعاتٍ طويلة، ويكثر من العبادة والصيام والذكر والصلاة حتىٰ ظهرت علىٰ يديه الخوارق والكرامات. ومع ذلك كان شديداً في تطبيق الشريعة والالتزام بأحكامها، ونَشَرَ العدلَ والأمنَ في ربوع البلاد، فنعمت البلاد في عهده بالسلام والرخاء.

الدولة التيموريّـة:

يعتبر تيمورلنك من أكابر عظماء العالم وقادته وقد برز تيمورلنك الذي يعرف أيضاً باسم تيمور كركن من قبيلة برلاس التركية كما يؤكد ذلك المستشرق فامبري، بينما يعتقد جماعة من المؤرخين أنَّ تيمورلنك ينتسب إلىٰ تومان خان يعتبر الجد الأكبر لجنكيزخان وكاراشار نويان(١).

وقد أسلم كاراشار نويان كما يذكر ذلك بابر في يومياته(٢).. وكان بابر يؤكد نسبة تيمورلنك من أمه إلى جغتاي بن جنكيزخان.. ومن المعروف أنَّ الأسرة الجغتائية حكمت منطقة التركستان وجزءاً كبيراً مما يعرف اليوم باسم الاتحاد السوفييتي لعدة قرون من الزمان.

وقد استطاع تيمورلنك (٧٦٥-٨٠٧هـ = ١٣٦٣-١٤٠٥م) أن يقيم امبراطورية باذخة سيطرت علىٰ معظم ما كان معروفاً من العالم القديم.. ووصلت جيوشه إلىٰ موسكو ووارسو كما استطاع أن يهزم السلطان العثماني بايزيد الأول هزيمة منكرة..

وكانت سمرقند في عهده تتيه علىٰ المدن بما حوته من فنون وصناعات وبمن سكنها من العلماء والأدباء..

ورغم بطش تيمورلنك وكونه من طغاة العالم إلاَّ أنَّه شجع العلم والعلماء كما شجع الفنون المعمارية بدرجة مذهلة..

وعندما مات تيمورلنك سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م خلَّف لأولاده إمبراطورية باذخة مترامية الأطراف تمتد من وارسو وموسكو حتىٰ بلاد العرب في الجنوب

---

(١) Keen H.G. The Turks in India. Idrah Adabiyat-Delhi, India 1972.

(٢) بابر هو مؤسس الدولة التيمورية في الهند والتي عرفت باسم الامبراطورية المغولية.

ومن حدود الصين في الشرق حتىٰ الأناضول في الغرب شاملة بذلك الاتحاد السوفيتي بأكمله ومعظم أراضي الدولة التركية العثمانية والعراق والشام وإيران وأفغانستان وباكستان وأجزاء من الصين (التركستان الشرقية المعروفة باسم سينكيانغ والمقاطعات الغربية من الصين) وكشمير والتبت وشمال الهند.

وقد تقاسم أولاده من بعده هذه الإمبراطورية الضخمة واقتتلوا عليها وسرعان ما أعاد أحفاد جنكيزخان المسلمون أجزاءً واسعة من أرضهم السابقة. . ومع هذا بقي التيموريون يحكمون التركستان (بلاد ما وراء النهر) لمدة قرن من الزمان.

وتميز حكم التيموريين (شاه رخ وألوغ بك وأبو سعيد التيموري) باهتمامهم الكبير بالعلم والعلماء وإنشاء المدارس والمستشفيات والمراصد الفلكية. وكان ألوغ بك شديد الشغف بمختلف العلوم. وقد أسس الجامعات الضخمة في بخاري وسمرقند وهراة وبلخ. . وكان ألوغ بك يُدرّس بنفسه للطلبة في هذه الجامعات.

واشتهر السلطان حسين بايقرا، وهو من البيت التيموري، بحبه للعلم والشعر والأدب. وحكم هراة من عام ٨٧٤ إلىٰ عام ٩١٥هـ (١٤٦٩-١٥٠٦م). وكانت هراة (في شمال غرب أفغانستان) في عهده كعبة القصاد من العلماء والأدباء والفنانين والشعراء. وازدهرت في عهده العلوم والفنون والأشعار وصناعة السجاد والرسوم الفنية الرائعة التي كانت تزين الدواوين والكتب. وقد ظهرت في أيامه الشاهنامة المزينة باللوحات الرائعة. وكذلك ديوان السعدي ونظامي وجامي. . وترقىٰ فن المعمار في عهده إلىٰ مستويات لم يبلغها من قبل.

وفي أواخر عهد السلطان حسين بايقرا ظهر فرع جديد للبيت التيموري في أفغانستان أسسه محمد بابر. . وكوّن دولة باذخة مركزها كابل ثم انحدر

منها إلىٰ الهند حيث كوَّن الإمبراطورية الباذخة التي عرفت باسم الامبراطورية المغولية والتي استمرت تحكم الهند حتىٰ عهد الملكة فيكتوريا ملكة المملكة المتحدة. وكان آخر ملوكهم بهادرشاه الذي نفاه الإنجليز إلىٰ رانجون والذي توفي سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م.

ولقد أقامت الدولة التيمورية في الهند حضارة إسلامية عظيمة ونشرت الإسلام إلىٰ أعماق القارة الهندية وبقيت آثارها الخالدة تدل علىٰ عظمة الإسلام وعظمة هؤلاء الملوك الذين حكموا شبه القارة الهندية بالعدل والتسامح الديني بصورة لم يسبق لها مثيل(١).

هذا موجز سريع لما قام به أحفاد جنكيزخان من خدمة للإسلام والمسلمين بعد أن كان جنكيزخان دماراً وهلاكاً علىٰ دول الإسلام، كما قام حفيده هولاكو بن تولي بالقضاء علىٰ الخلافة العباسية، ودمّر بغداد، وروّع العباد والبلاد، ثم أخرج الله من أصلابهم من آمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً ونبياً.

ولا شك أن هذا الدين يعلو ولا يُعلىٰ عليه. ومهما كانت الخطوب المدلهمة في الماضي وفي الحاضر فإنّ النصر والغلبة بإذن الله لهذا الدين وللعاملين له الداعين إليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلّا علىٰ الظالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا وإمامنا وقدوتنا محمد بن عبد الله، وآله ومن والاه، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

---

(١) هذا الفصل حول الدولة التيمورية من كتابي «التركستان مساهماتٌ وكفاح»، ص٨٥-٨٧، نشر الدار السعودية بجدّة، ١٩٩٠م.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

HOW THE MUGHAL BECAME MUSLIM

BY: DR. MUHAMMAD ALI AL-BAR

كتاب ممتعٌ حقاً ! يجول في بلاد ما وراء النهر، عبر قرون من الزمان، يرصد ذلك الجنس الأصفر (المغول) الذي مدّ سلطانه على بقاع شاسعة من هذه البسيطة دهراً، وأذاق البشر ألوان الهوان من بطشه وفتكه ... لكنّ نور الحق يتسلل إلى قلوب بعض أولئك الجبابرة، فيُوقظ ضمائر من غفلتها، فينتهي الأمر بطوائف من المغول إلى اعتناق الإسلام، ويخرج من أصلابهم من يؤمن بالله تعالى ويخدم العلماء والصالحين دهراً آخر، حتى تدول دولتهم كما هي سنة الله في خلقه.

ويعرّف هذا الكتاب بالتركستان والمغول والدول الغزنوية والسلجوقية، والخوارزمية، ودولة جنكيزخان كبير المغول، وأولاده وأحفاده، ورجال دولته، ويسوق كثيراً من الوقائع والأحداث البالغة العِبَر.





دار الفتح للدراسات والنشر

www.alfathonline.com